

عُبَيْدُ الله بنُ الحُرّ الجُعْفِي

بين أناشيد البطولة وآلام الندم

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف : تميم كلش

q q

د أحمد علي دهمان

أستاذ النقد الأدبي بجامعة البعث (حمص)

عُبَيْدُ الله بنُ الحُرّ الجُعْفِي

بين أناشيد البطولة وآلام الندم

- دراســـة نقديـــة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - ٢٠٠٢

المقدمة:

تتناول هذه الدراسة النقدية شعر عبيد الله بن الحرّ الجُعْفي الشاعر الفارس الذي عاش إبّان الحقبة الدامية من بداية العهد الأمويّ، حيث شهدت الدولة العربية الإسلامية اضطرابات كثيرة، وانقسامات سياسية حادة، وظروفاً عامة خطيرة، تجلت في ظهور الحركات الاستقلالية المتمثلة بحركة عبد الله بن الزبير في الحجاز وأخيه مصعب في العراق، التي هدفت إلى تثبيت "الأرستقراطية" القرشية في السلطة، وقيام حركة المختار الثَّقفي الشيعية التي نادت بإعادة الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، ودعت إلى قتال الأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من الطالبيين، فضلاً عن حركة الخوارج الذين رفضوا كل سلطة لا تقيم شرع الله وحده...

وشهدت هذه المرحلة كذلك بروز نزعات الموالي التي اتصفت فيما بعد بالشعوبية السياسية والدينية المعادية للعروبة والإسلام. مقابل ذلك كان الأمويون حزب السلطة والقوة الضاربة التي تقمع حركات الانفصاليين، والثائرين، والناقمين والمعارضين. وكانت أهم مظاهر الحياة السياسية في هذا العهد قضية ولاية العهد وتحول الملك من خلافة إسلامية قائمة على أساس من الشورى، إلى حكم ملكي استبداديّ وراثي، وعسْف الولاة، وضرب جيوش المناوئين التي هددت الخلافة في دمشق، وإثارة النعرات القبلية، وإيقاظ المشاعر العدائية بين العدنانيين والقحطانيين كي يتهيأ الاستقرار للحكومة الأموية.

وكانت حركة الصعاليك نشيطة في هذه الحقبة، وقد كانت امتداداً لتلك التي ظهرت في الجاهلية، إلا أنها كانت في العهد الأموي أشد تنظيماً، وأوضح أهدافاً، وأكثر خطورة على السلطة، والتزاماً بالمبدأ، إذ إن طائفة من هؤلاء "الصعاليك" ثارت على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت آنذاك. على الرغم من أن الإسلام قد حلّ المشكلات التي ثار الصعاليك الجاهليون بسببها، إذ سوّى بين الناس، وكفل لهم حياة كريمة، وأحاط المجتمع

بالحدود التي تحافظ على النظام، وتضرب بشدة على أيـدي المنحـرفين مـن لصوص وقطاع طـرق وعـابثين فـي الأرض. وتـأثر بعـض الـصعاليك المخضرمين بالإسلام وتعاليمه، وأخذوا يصدرون عنها فـي أشـعارهم التـي نظموها بعد إسلامهم، مؤمنين بأن عهد الفوضى والظلم قد ذهب، وحـل محلـه عهد الحق والعدل والخير.

وتجلى العامل الاقتصادي في هذه الحقبة التاريخية المهمـة فـي مظـاهر الفساد السياسية، أضف إلى ذلك استئثار بعض عمـال الدولـة بـأموال كـانوا يفرضونها على الرعية أثقلت كاهلها، إلى جانب تظلم القبائل وأهل الأمصار من الحكومات المتعاقبة، وقد أدى ذلك إلى انقسام المجتمع إلى طبقتين بينهما بـون شاسع: الأولى مترفة غنية، بيدها النفوذ والمال والجاه والإقطاعات، تتمثل فـي السلطة والولاة والحاشية والبطانة، والطبقة الثانية: الـشعبية الفقيـرة الكادحـة المحرومة التي فُرضت عليها الواجبات وسُلبت أبـسط حقوقهـا، ولهـذا عـمّ الاضطراب وما رافقه من قمع وقسوة، فـألقى بظلالـه الثقيلـة علـى الحيـاة الاجتماعية التي عرفت نظام الرعي والأعراف القبلية السائدة، والتنـاحر بـين القبائل، وما يرافق فترات التحول والانتقال- عادة- من تخلخل اجتماعي نتيجـة لتغير بنية الحياة ومظاهرها ومرافقها. وقد حدث ذلك في بعض مراحل الدولـة الأموية.

ودفعت هذه الأوضاع بعض الناس إلى التصعلك، أو التمرد، أو الثورة، أو الانقضاض على الحكم، وكان الأدب وما يزال مسايراً للسياسة، بل إن العامـل السياسي كان المحرك، والباعث المؤثر في الحياة الأدبيـة فـي القـرن الأول للهجرة. وقد تجلى التحول الشعري الذي شهده العصر الأموي فـي تجـربتين: الأولى، ذاتية فردية الأولوية فيها للعالم الـداخلي للـشاعر، دون عـالم القـيم الأخلاقية والاجتماعية، والثانية هي التجربة السياسية (الأيديولوجية) أي التوحيد بين الشعر والفكر، والنظر إلى الشعر على أنه شكل من أشكال الفكر، ورفـض القول بوجوب اقتصاره على التعبير عن الانفعالات الشعورية. فالـشعر عنـدها وسيلة لخدمة المبدأ، يبشّر به ويدعو له، أي إنه وسيلة جماعية لا فردية.

وقد صنّف (أدونيس)[١] عبيد الله بن الحر بين شـعراء التجربـة الأولـى (الذاتية)، في حين أن واقع الحال يفيد بأنه لم يكن كذلك، إذ عبر شـاعرنا عـن تجربة سياسية وحدت بين القول والفكر، فنظر إلى الشعر بوصفه شـكلاً مـن

---

(1)-الثابت والمتحول (١/٢٥).

أشكال الفكر، يعبر فيه عن إحساس عميق الإيمان برفض الظلم الاقتصادي والاجتماعي، وكانت له رؤية سياسية- كما سنرى- كافح من أجلها، وحافظ على نقائها، وكانت مواقفه، ومعاركه، وما أبدعه من شعر أرّخ فيه لهذه المعارك والمواقف، أقرب الأمور إلى تصنيفه ضمن شعراء الحرب والحماسة، وذلك لأن شعره لم يكن بمعزل عن حياته أبداً، فكل مقطوعة أو قصيدة، مما جمع له من شعر- على قلته- مرتبطة بحادث يمت إلى التاريخ، ويمسه من قريب أو بعيد. وتلك هي أهم صفات الشعر الحماسي التي ذكرها الدكتور زكي المحاسني[١]، فهو يرى أن شعر الحرب في أدب العرب أقوى من نظم الشعراء، وأبقى على ترادف الأحقاب؛ لأنه يتصل بالأمة فيضم ماضيها إلى عزة حاضرها، وهو وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها، وأناشيد بطولاتها، لأن العرب أمة حرب في فطرتها، وشعر الحرب يصور الحماسة العربية في أصدق مظاهرها، وأروع بيئاتها، مسكوباً عليها لونان من العبقرية، أحدهما، عربي صميم في باديته وإبله وخشونته وبأسه، والثاني: ديني إسلامي في روحه وبواعثه وثوابه وآخرته.

وإذا كانت الحماسة تعني- لغوياً- الشجاعة وتقترن بها وبالقوة والغضب والشدة والهياج، والمعاني التي تتفرع منها مما يدعو إلى الحرب والاقتتال والاستبسال، كإثارة النخوة والتغني بصفات المروءة، والاحتمال والصبر، والإباء والجرأة والشدة[٢]، فإن ابن الحر عبّر عن معظمها في شعره وفي سلوكه، وكان سلاحه مرافقاً له في جولات النصر والهزيمة، وكذلك فرسه، لأنهما عنصران متلازمان في حياة الفارس البطل. وهما عند شاعرنا يحددان الجانب من شخصيته لكثرة أوصافه لهما، كما أن مشاركته في المعارك الشديدة التي خاضها تجسيد حي لهذا الأمر، ومجال لوصف استبسال فتيانه في المعارك، إذ بدوا فيها بيض الوجوه، كريمة أحسابهم، كالمصابيح المضيئة في ليل داج، لأنهم كرام مطيعون، أشداء... أما المرأة في حياته وشعره فهي العِرْض المصون، والشرف المحمي، بل هي رمز للحقيقة التي يناضل من أجلها ويدافع عنها، إنها رمز للوطن، إن لم تكن الوطن نفسه، الوطن المتمثل في الحفاظ على عناصر الوجود، وهل كان هجومه على السجن إلا لفك أسرها؟

---

(1)-شعر الحرب في أدب العرب (٥و٦).

(2)-لسان العرب (٥٧/٦) تاج العروس (١٣٢/٤) القاموس المحيط (٢٠٨/٢).

تغنّى عبيد الله بن الحر في شعره بأناشيد البطولة التي تبعث في النفوس الطامحة إلى العُلا نوازع الانعتاق والتحرر والشمم، فجسد في حياته الحافلة بالأحداث والمواقف مفهوم البطولة عامة، وحدد ملامح شخصيته بصورة خاصة. والذي هو قصدنا في هذا البحث صلته بالإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)، الذي طلب نصرة ابن الحر، إلا أنه خذله، وتخلى عنه، معتذراً لكنه إثر وقعة كربلاء الدامية غضب لمقتل الحسين، ورثاه رثاء حزيناً باكياً، عبّر فيه عن غضبه لمقتله، داعياً إلى الأخذ بثأره، فبكى في شعره دماً، وأكثر من التعبير عن آلام الحسرة والندم والحزن واللوعة، مقرّعاً نفسه، واصفاً مصرعه الذي أثار في أعماقه لواعج الألم، فتحركت نوازعه تشعر بالإثم. وكانت معانيه، فيما وصل إلينا من شعره الذي رثى به الحسين بن علي، إطاراً فنياً كشف فيه عن هذه المعاني، وخصوصاً كونه رهين الصراع بين البطولة والتخاذل.

وعليه فقد حددنا هدف هذا البحث في بيان شخصية البطل الفارس، والشاعر المجوّد، وبيان صدى هذه البطولة فيما عبّر عنه من معان شعرية تهدي إلى الكشف عن حياته، وعن الأبعاد الأخرى التي أهملتها كتب التاريخ. ونهجنا النقدي في ذلك هو الوقوف الواعي المتأني عند النصوص، والتنبيه على أنه الشاعر الذي يملك ناصية القول والفعل معاً. وهذا ما تجلى في موقفه من الإمام الحسين قبل مصرعه وبعد المأساة، ذلك الموقف الذي تجسد أمامنا حدثاً شعرياً، كان الإرهاص الأول للشعر السياسي المعبر عن نظرة الشيعة ومنطلقاتها السياسية، وهو صدى قويّ لحركة التوابين التي طالبت بنصرة الحسين، والثأر له. إن منهجنا الذي نطبقه للوصول إلى هذه النتائج هو المنهج اللغوي التحليلي[1] الذي وضع أسسه إمام النقاد عبد القاهر الجرجاني وطبقه في كتابيه الدلائل والأسرار. فكان (ابن الحر بين نشوة النصر وسياط الندم) موضوع الفصل الأول.

وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب (أنغامه الشعرية الأخرى) برزت طبيعة هذا المنهج بوضوح أكثر عندما قمنا بتحليل معاني أشعاره الأخرى، ونقدها في ضوء المنهج التكاملي الذي يفيد من نتائج المناهج النقدية جميعاً، فيسلط الأضواء على نسيج النص ليستخلص قيمه التبعيرية وخصائصه الفنية، وهذا ما

---

(1)-للوقوف على طبيعة المنهج، ينظر كتابنا: الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، منهجاً وتطبيقاً، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٠م.

فعلناه في حديثنا عن شخصية البطل، التي رسم الشاعر خطوطها وألوانها بالكلمات والفعل، حيث بدا ابن الحر فارساً، واضح القسمات، حريصاً على النصر، هازئاً بالموت، وذا قدرات فائقة وعقل مدبر، وزعيماً لجماعة مخلصة له وللهدف الذي يعملون من أجل تحقيقه. ففي معاني الجرأة والشجاعة يعطي التضحية قيمة كبرى، ويرفض الذل والاستسلام والمهانة، ويحضُّ على الصمود وحماية الناس من الفتاك واللصوص، وبذلك اصطبغت بطولته بألوان الواقعية.

أما دوافع هذه البطولة فقد باحت بها أشعاره، فهو رمز تجسدت فيه الآمال، وفارس يقاتل من أجل عدالة لم تتحقق في محيطه، ومساواة في الحقوق لا تشمله، ورأى في العمل الثوري حماية للمجد الموروث الذي يسطر في سفر الفخر هذه المعارك والأيام التي أرخ لها شعراً، وخلدها بربط الشعر بالفعل المنتصر، تجلى هذا الغرض بوضوح في علاقاته مع المختار الثقفي ومصعب بن الزبير، فهو لا يفتأ يشيد بانتصاراته التي تحققت بمعاونة ابن الحر، ويذكره بالمعارك التي خاضها في المواقع المختلفة، وهي كثيرة...

وكان وصف السلاح والخيل، والحديث عن دورهما في المعركة، جزءاً عظيماً من حياة الفارس الثائر، والشاعر الذي يريد أن يفتق القول في شجاعة الخيل وانقضاضها على العدو، وزرع الرعب في النفوس، لأن سلاح الفارس وعدته وسائل النصر، أما الأهم من هذه العدَّة فهم الفتيان الشجعان، الذين أطال القول فيهم، وأكثر من الحديث عن إطاعتهم له، وفدائه لهم، وصفهم من الداخل والخارج فهم: بيض الوجوه، أشداء، متمرسون في الحروب، مندفعون إلى ساحات الوغى، مدفوعون بنفوس متعطشة إلى الاستشهاد، وبذلك كانوا رموز الشجاعة، وعنفوان البطولة، وأبناء الليل، ورفاق السلاح والمصير، بهم ينتصر، ولهم يغني، ولاستشهاد أحدهم يحزن، ويطلق الوعيد والتهديد ويفعل، لأن أصحابه جزء أساسي من عالم البطولة، التي تبدو طبيعتها حين يكون السجن والتحدي دافعاً لقول الشعر، وهو غرض شعري جديد في هذا العصر، مرتبط بالسياسة والثورة على النظام الحاكم، وفيه تحدث ابن الحر عن قسوة السجن، وقيوده، وسجانه، وعذابه، وكبول العبودية، والظلم، والحنين إلى الحرية. فالسجن في نظره هو التحدي الذي به يجابه الظالم، ويبرهن على قدراته الحربية

أما المرأة في شعره، فإنها رمزٌ لكل ما هو مقدس غالٍ، ولهذا يقتحم الشاعر السجن ليفك أسرها، ويحقق ذاته المنتصرة في آن معاً. ولم تخل أشعاره

من الحكمة التي لا تخرج عن إطار التجربة الحياتية المستمدة من الحب والحرب والفروسية والبطولة والظلم، فعبر عن رفض الخوف، وأكد إيمانه بقضاء الله وقدره، فالأيام دول، ومن غياهب السجن يبزغ فجر الحرية، وتزدهر الحياة وتحفل بتلك التجارب، إذ لا بد من الرخاء بعد الشدة.

ولما كان شعر ابن الحر تعبيراً عن شخصيته ومسيرة حياته الحافلة، كان هجاؤه رد فعل للمواقف التي مر بها. فإذا ما هجا الثقفي وصفه بالكذاب المتسلق إلى السلطة، حتى أسقط صورته في الأذهان عندما وسمه بأنه طامع في السلطة ليسٍ غير، أما عندما يهجو ابن الزبير فإنه يبدي بعض الاحترام ويؤكد نزعة الندِّية، ويكثر من معاني العتب واللوم، ويذكره بمواقفه المؤيدة والمؤازرة له، وبالحسب والنسب الذي يجمعهما، وإذا ما زاد هجاؤه لمصعب ضراوة، فإنه يهدده ويتوعده. وقد كان العتاب والاعتذار رسائل موجهة إلى مصعب الذي استدرج الشاعر وأمر بحبسه، وهنا نحس بمشاعر العتب الممزوج بالاعتذار، باللوم، بتقريع النفس التي انطلت عليها هذه الخديعة، إذ كيف تحول الحال إلى سجن بعد إخلاص وصدق.

وكان إبراز أهم الخصائص الفنية في شعره خاتمة القول في هذه الدراسة النقدية، وهنا لخصنا أهم النتائج التي ميزت ابن الحر بوصفه إنساناً وفناناً، إذ تداخلت شخصيته التاريخية بشخصيته الفنية، وكان رثاؤه للحسين عليه السلام إرهاصاً لغرض شعري جديد برز بعدئذ عند التوَّابين من شعراء الشيعة، كما أنه طرق موضوعات شعرية جديدة، على الرغم من أن ما وصل إلينا من شعره الذي استقصيناه في المظان التي ورد فيها، قليل بالقياس إلى فعل هذا الرجل وعبقريته الفنية. ومع ذلك فإن أشعاره هذه تتصف بكونها شعر مقطوعات وليدة اللحظة، صادرة عن عفوية وتلقائية، حتى كاد شعره يخلو من جماليات التشكيل البلاغي، وكانت إيقاعاته النغمية صدى لإيقاعه النفسي.

وبذلك بدا لنا عبيد الله بن الحر الجعفي شاعراً حازماً، وبطلاً حزيناً صادقاً فكان وتراً مشدوداً بين نشوة النصر وأحزان الندم...

والله من وراء القصد وهو الموفق للصواب

حمص في ٣٠/٤/٢٠٠١م

¾ ¾

الفصل الأول:

ابن الحر: بين نشوة النصر وسياط الندم

شخصية ابن الحر وعلاقاته في عصره:

هو عُبَيد الله بن الحُرّ بن عمرو بن خالد بن المجمع بن مالك بن عوف بن حريم بن جُعفى بن سعد العشيرة. الشاعر الفاتك، كما وصفه ابن حزم[١]، والشجاع الفاتك كما وصفه البلاذري[٢]. وهو ممن شُهِروا بالفَتْك في الإسلام، كما ذهب أسامة بن منقذ[٣]، يقتضينا هذا أن نحدد معنى الفتك، حتى نوفق بين آراء القدماء، فيما ذكروه من صلاحه وفضله وشجاعته، وما أكده شعره كذلك، فنذهب إلى أن الفَتْك هو الثورة أو التمرد، أو الخروج على العرف السياسي القائم، رفضاً له، ومقاومة لظلمه.

وذكر ابن خلدون[٤] أن عبيد الله بن الحر الجعفي كان من خيار قومه صلاحاً وفضلاً، وبذلك أكَّد ما أخبرنا به الطبري، حين ذكر في خبر مقتله سنة ثمان وستين للهجرة أن "ابن الحر كان رجلاً من خيار قومه صلاحاً وفضلاً وصلاةً واجتهاداً، فلما قُتل عثمان وهاج الهَيْجُ بين علي ومعاوية، قال: أما إن الله ليعلم أني أحب عثمان، ولأنصرنه ميتاً. فخرج إلى الشام، فكان مع معاوية، فأقام عبيد الله عند معاوية وشهد معه صِفّين، ولم يزل معه حتى قُتل علي (عليه السلام)، فلما

(1)-جمهرة أنساب العرب /٤١٠/.
(2)-أنساب الأشراف (٥/٢٩٠).
(3)-لباب الآداب /١٧١/.
(4)-تاريخ ابن خلدون (٣/١٤٨).

قتل علي قدم الكوفة، فأتى وإخوانه ومن خفَّ في الفتنة، فقال لهم: يـا هـؤلاء، مـا أرى أحداً ينفعه اعتزاله، كنا بالشام فكان من أمر معاوية كيت وكيـت، فقـال لـه القوم: وكان من أمر علي كيت وكيت، فقال يا هؤلاء، إن تُمكننا الأشـياء فـاخلعوا عُذُرَكُم، واملكوا أمركم. قالوا: سنلتقي، فكانوا يلتقون على ذلك"[١].

يفيد هذا النص في تحديد الملامح العامة لشخصية هذا الـشاعر، ويـذكر جانباً من سيرة حياته في مرحلة بدء ظهوره على ساحة الأحـداث. فقـد كـان عثماني الهوى، ثم رأى أن يستقل بموقف فدعا إلى رفـض كُـلٍّ مـن طرفـي الخصومة والصراع إبان صفين وبعدها، متخلياً عن عليّ ومعاوية معاً، طالبـاً من مريديه أن يرفضوا كل سلطة وأن يسوسوا أنفسهم. وقد التقوا على ذلك.

ويتابع الطبري قائلاً: إنه بعد موت معاوية هاج الهَيْج في فتنة ابن الزبيـر، فقال ابن الحرّ: "ما أرى قريشاً تنصف، أين أبناء الحرائر؟ فأتاه خليع كل قبيلة، فكان معه سبعمئة فارس، فقالوا: مُرْنا بأمرك. فلما هرب عبيد الله بـن زيـاد، ومات يزيد بن معاوية، قال عبيد الله بن الحر لفتيانه: قـد بـيّن الـصبح لـذي عينين، فإذا شئتم! فخرج إلى المدائن فلم يَدعْ مالاً قُدِّم من الجبـل للـسلطان إلا أخذه، فأخذ منه عطاءه وأعطية أصحابه، ثم قال: إن لكم شركاء بالكوفة في هذا المال قد استوجبوه، ولكن تعجلوا عطاء قابل سلفاً. ثم كتب لصاحب المال براءة بما قبض من المال. ثم جعل يتقصى الكور على مثل ذلك".[٢]

ويؤكد هذا الخبر أن ابن الحر وجماعته فقدوا كل أمل ورجاء بعـد مـوت يزيد، وبذلك بدؤوا حركة تمردهم وفعلهم في أخذ مال السلطان وتوزيعه علـيهم جميعاً، ولو كانوا في الكوفة، بعيداً عن أرض الموقعـة. وثمـة ملمـح آخـر لشخصية هذا الشاعر، وهو أنه لا يعمل في الخفاء كاللصوص؛ لأنـه صـاحب قضية، سُدَّتْ في وجهه السبل الشرعية، فلم يجد ورفاقه بداً من قطـع الطريـق سبيلاً للحق، وللتعبير عن أنفسهم بكل شجاعة وعلانية؛ لأنه كان يكتب لصاحب المال "براءة" بما قبض.

ويتساءل الطبري: هل كان ابن الحر يتناول أموال الناس والتجار؟ فيـذهب إلى أنه "ما كان في الأرض عربيٌّ أغيَرَ على حُرَّة، ولا أكفَّ عن قبـيح وعـن شراب منه"[٣]. ويذكر أن شعره وضَعه عند الناس، وهو من أشعر الفتيان، وإن

---

[1]-تاريخ الطبري (١٢٨/٦).
[2]-تاريخ الطبري (١٢٨/٦).
[3]-نفسه (١٢٩/٦).

كنا نرى أن شعره أهم مظاهر شخصية الفارس، الحامي حقائق قومه، الباسل في المعارك، لأن شعره جزء من شخصيته، وهو وسيلته الفنية للتعبير عن رفضه الواقع السياسي والاجتماعي في عصره، فمن خلال أناشيد البطولة تتحدد رؤيتنا الفنية والأدبية لمرحلة عصيبة من تاريخ مجتمعنا العربي الإسلامي، شهدت أحداثاً جساماً، منها قيام هؤلاء "العصاة" أو "الفُتّاك" أو الخارجين، كما أطلقت عليهم السلطة ومن استظل بعطائها من المؤرخين. لقد وقف هؤلاء في وجه النظام الحاكم، وأسهموا في القلاقل السياسية والصراعات المذهبية، والأزمات الاقتصادية، والفتن الداخلية، وهي الظواهر الكبرى التي رافقت وجود ابن الحر إبان الحقبة الأموية من لخلافة الإسلامية.

وأكد الطبري ذلك عندما تحدث عن علاقاته بأقطاب السياسة في عصره، إذْ أبى أن يبايع المختار الثقفي في البدء، ولكن مقتل الحسين (رضي الله عنه) وموقفه المعادي للأمويين دفعاه إلى أن يبايعه على حذر، ولكنه أغار على أراضيه في ثلاثمئة من أصحابه في (الأنبار) و(كسكر)، فأرسل المختار جيشاً هدم دار ابن الحر وحبس امرأته أم سلَمة الجُعْفِيّة. وأقسم المختار الثقفي أنه سيقتله وأصحابه، فلما بلغ ذلك عبيد الله أقبل في فتيانه حتى دخل الكوفة ليلاً، فكسر باب السجن وأخرج امرأته، وكل رجل كان فيه، فبعث إليه المختار من يقاتله، فقاتلهم ابن الحر حتى خرج من المِصْر، فقال حين حرَّر زوجته من السجن قصيدة طويلة، مطلعها[1]:

ألم تَعْلَمي يا أمَّ تَوبَــةَ أنني ... أنا الفارسُ الحامي حقائِقَ مَذْحِجِ

وكان ابن الحر يعبث بعمال المختار وأصحابه ويهاجم ضياعهم وينهبها، وكان يخاطب المختار بصفة الكذّاب:

وما ترَكَ الكذَّاب مِنْ جُلّ مالِنا ... ولا الزُّرقُ مِنْ هَمْدان غيرَ شريدِ

وتؤكد أشعاره التي تناول فيها علاقته بالمختار الثقفي، فضلاً عن أعماله التي قام بها المختار انتقاماً منه، وكذلك المعارك التي دارت بينهما، عمقَ احتقاره للثقفي واستهانته به، وحقده عليه.

وقبل المختار كان لابن الحر صلات برجال عصره الآخرين كمعاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وابنه الحسين رضي الله عنه، وابن زياد وغيره، نمرّ بذلك مروراً سريعاً رغبة في بيان جوانب صورة هذا

(1)-القصيدة في تاريخ الطبري (٦/١٢٩-١٣٠). وشعراء أمويون (١٩).

الرجل. فقد جاء في أخباره[١] أنه صار مع معاوية، وكان يكرمه ثـم خـرج مـن عنده مُغْضباً يريد الكوفة في خمسين فارساً، ومضى لا يمر على قرية مـن قـرى الشام إلا أغار عليها، حتى قدِم الكوفة وكان له في الكوفة امرأة يقال لهـا الـدرداء، وهي كبشة بنت مالك، فلما طالت غيبته فقده أهلُها، فزوجوها مـن رجـل يـدعى عِكْرِمة بن الحنبص، فقاضاهم الإمام علي كرم الله وجهه، فكانت نتيجـة ذلـك أن قَضَى له بامرأته. وقد ذكر البغدادي[٢] أن اتصاله بالإمام علي رضي الله عنه كـان بعد أن اختلف ابن الحر مع معاوية، وقتل نفراً من أصحابه، وغنم مـا بقـي مـن عتادهم، وعندما قدم إلى الكوفة سأله علي رضي الله عنه قائلاً: "يا بن الحـرّ أنـت الممالئ علينا عدوَّنا؟ فقال ابن الحر: أما إن ذلك لو كان لكان أثـري معـه بيننـا، وكان ذلك مما يخاف من عدلك"، وبعد أن قضى له بالمرأة، أقـام عبيـد الله معهـا منقبضاً عن كل أمر في يدي عليّ، حتى قُتل علي رضي الله عنـه، وحتـى وُلّـي عبيد الله بن زياد العراق، وهلك معاوية، وولي يزيد بن معاوية.

ويرجح البغدادي أن ابن الحرّ كان يميل إلى علي رضي الله عنه حباً بـآل البيت. فقد ذكر أنه كان شجاعاً لا يعطي الأمراء طاعة، ثم صار مـع معاويـة فكان يكرمه، وكان ينتاب عبيد الله أصحابٌ له فبلغ ذلك معاويـة، فبعـث إليـه فدعاه، فلما دخل عليه قال: يا بن الحر ما هذه الجماعة التي بلغني أنها ببابـك؟ قال: أولئك بطانتي أقيهم وأتقي بهم إن ناب جَوْر أمير، فقال معاوية: لعلـك يـا بن الحر قد تطلّعتْ نفسُك نحو بلادك، ونحو علي بن أبي طالب، قال عبيـد الله: إنْ زعمتُ أن نفسي تطلّع إلى بلادي وإلى علي، إني لجدير بذاك، وإنـه لقبـيح بي الإقامة معك، وتركي بلادي، فأما ما ذكرت من علي، فإنك تعلم أنـك علـى الباطل، فقال له عمرو بن العاص: كذبتَ يا بنَ الحرّ وأثمت، فقال له عبيـد الله: بل أنت أكذب مني... ثم خرج عبيد الله مغضباً وارتحل إلى الكوفة[٣].

وعلى الرغم من أنه كان مع معاوية، أو يميل إلى عثمان بن عفان رضـي الله عنه، أو أنه شهد صفِّين وهو في جيش معاوية، كما يذكر ابن الأثير[٤] وابن حزم[٥]، أو أنه كان أموي الأصل كما يزعم المبرِّد[٦]، فقد كان الرجـل ملتزمـاً

---

(1)-انظر أنساب الأشراف (٦/٢٩٠) والطبري (٦/١٢٨).
(2)-خزانة الأدب (١/٢٩٧) وانظر الكامل في التاريخ (٤/٢٨٧).
(3)-خزانة الأدب (١/٢٩٧).
(4)-الكامل في التاريخ (٤/٢٨٧).
(5)-جمهرة أنساب العرب (٤١٠).
(6)-الكامل (٤/٤٦٣).

بالقضية التي اجتمع وأصحابه عليها، عندها هاج الهيج بعد موت معاوية وفتنـة ابن الزبير ثم موت يزيد بن معاوية، وشـكلوا الجماعـة المحاربـة، وأخـذوا يمارسون الفعل المضادّ للسلطة. ومن جانب آخر يمكن أن يكون هـذا الموقـف أساساً أولياً لنوبات الحسرة والندم التي عبر عنها ابن الحر بعد فاجعة كـربلاء، على أن حب آل البيت والتعاطف معهم لما أصابهم من حيف وظلـم وتـشريد، ليس دليلاً على التشيّع، لأنه شرعةُ كل مسلم. وثمة أمر آخر نستنبطه من النص السابق إن كان صحيحاً، وهو مبلغ جرأته وصراحته، عندما أجاب معاوية بـأن علياً لعلى الحق، وأن معاوية بذلك عالم، وكذلك رده على ابن العاص وعبيد الله بن زياد بعد ذلك. هذا الأمر يوضح الشيء الكثير من جوانـب شخـصية هـذا الفارس الشجاع، كالجرأة والشجاعة والصراحة في التعبير عن الرأي.. ألـيس القائل في معرض رفضه للسلطة القائمة، ودعوته إلى خلع كل أمير بعد الخلفاء الأربعة: "قاتلوا عن حريمكم، فإني قَلَبْتُ ظهرَ المجنّ، وأظهرتُ لهـم العـداوة، ولا قوة إلا بالله"[١]؟

أما عن علاقته بوالي الأمويين على العراق، عبيد الله بن زياد، فقـد ذكـر العلامة المؤرخ ابن خلدون[٢] أنه بعد مقتل الحسين وتغيـب ابـن الحـر عـن ملحمته، سأل عنه ابن زياد فلم يره، ثم لقيه فأساء عذله، وعرَّض له بالكون مع عدوه، فأنكر ابن الحر ذلك وخرج مغضباً، وراجع ابن زياد رأيه فيه فطلبه، فلم يجده، فبعث إليه فامتنع قائلاً: "أبلغوه أنّي لا آتيه طائعاً أبداً". ويبدو أن ابن الحر كان غاضباً من ابن زياد لقتله الحسين رضي الله عنه، بمقدار ندمه علـى عـدم نصرة الإمام الشهيد. فبعد قوله السابق أتى منزل أحمد بن زياد الطائي، فاجتمع إليه في منزله أصحابه ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم مـن أصحاب الحسين رضي الله عنه، فاستغفر لهم هو وأصحابه، ثم مـضى حتـى نزل المدائن، وقال في ذلك قصيدة مؤثرة[٣]، أرخ فيها لهـذه المأسـاة الداميـة، وفيها يصف ابن زياد بالغدر، ويذكر الشهيد ابن فاطمة ومطلعها:

يقولُ أميرٌ غادرٌ حـقّ غـادرٍ	**ألا كنتَ قاتلتَ الشهيدَ ابنَ فاطمهْ**
فيا نَـدَمي ألاّ أكـونَ نَـصَرْتُهُ	**ألاّ كُـلُّ نَفْـسٍ لا تُـسَدّدُ نادِمَـهُ**

(1)-الكامل (٤/٢٩٩) والمجن: الترس.
(2)-تاريخ ابن خلدون (٣/١٤٩).
(3)-القصيدة في الكامل (٤/٢٨٨) وأنساب الأشراف (٥/٢٩٢). وشعراء أمويون (١١٥).

وهذا دليل كاف على أن حادث مقتل الحسين غيَّر مجرى حياة ابن الحر، كما سنرى.

وفي هذه الحقبة التاريخية المضطربة كان مصعب بن الزبير والي أخيه عبد الله على العراق، وقد مرت علاقة ابن الحر به بمراحل عدة، فبعد أن شارك معه في القضاء على المختار وحركته سنة (٦٦)هـ[1] تغير موقفه من مصعب بن الزبير وذلك بعد أن قال الناس لمصعب: "إن ابن الحر شاقٌّ ابن زياد والمختار، ولا نأمنه أن يثِبَ بالسواد كما كان يفعل، فحبسه مصعب[2] وقد ردد ابن الحر هذه الوشاية غيرما قصيدة وهو في حبس مصعب يستعطفه كي يطلق سراحه، كقوله[3]:

مَنْ مُبلغُ الفتيانِ أنَّ أخاهُمُ	**أتى دونَه بابٌ شديدٌ وحاجِبُهْ**
بمنزلةٍ ما كانَ يَرْضَى بمثلها	**إذا قام عَنَّتْهُ كبُولٌ تُجاوبُهْ**
على الساق فوقَ الكَعْب أسْودُ صامتٌ	**شديدُ يُداني خَطْوَهُ ويقاربُهْ**
وما كان ذا مِنْ عُظْمِ جُرْمٍ جَنَيْتُهُ	**ولكنْ سَعَى الساعي بما هو كاذِبُهْ**
وقد كان في الأرضِ العريضةِ مَسْلكٌ	**وأيُّ امرئٍ ضاقَتْ عليه مذاهبُهْ**
وفي الدهرِ والأيامِ للمرء عِبْرةٌ	**وفيما مضى إنْ نابَ يوماً نَوائِبُهْ**

وبعد أن أطلقه مصعب أتى إليه الناس يهنئونه، فصرخ "بأن أحداً لا يستحق بعد الأربعة، ولا يحل أن يعقد لهم بيعة في أعناقنا، فليس لهم علينا من الفضل ما يستحقون به ذلك، وكلهم عاصٍ مخالف قوي الدنيا، ضعيف الآخرة، ونحن أصحاب الأيام "وفي رواية أخرى[4]" قال: هذا الأمر لا يصلح إلا لمثل خلفائكم الماضين، وما نرى لهم فينا نِدًّا ولا شبيهاً فنلقي إليه أزمَّتنا، ونمحضه نصيحتنا، فإن كان هو مَنْ عزَّ بَزَّ، فعلام نعقد لهم في أعناقنا بيعةً، وليسوا بأشجع منا لقاءً، ولا أعظم منا غناءً وقد عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وما رأينا بعد الأربعة الماضين

---

[1]-الطبري (١٠٥/٦) بدأت حركة المختار سنة (٦٥)هـ بعد مقتل سليمان بن صرد زعيم حركة التوابين على يد عبد الملك بن مروان، وقتله مصعب بن الزبير سنة (٦٦).

[2]-نفسه (١٣٠/٦) وأنساب الأشراف (٢٩٥/٥).

[3]-أنساب الأشراف (٢٩٣/٥). الطبري (١٣١/٦). وشعراء أمويون (٩٣).

[4]-الطبري (١٣١/٦، ١٣٢) وابن خلدون (١٤٩/٣).

إماماً صالحاً، ولا وزيراً تقياً، كلهم عاصٍ مخالف، قوي الدنيا، ضعيف الآخرة. فعلامٍ تُستحلُّ حرمتنا، ونحن أصحاب النُّخَيْلَةِ والقادسيةِ وجلولاء ونهاونَدْ!! نَلْقى الأسنَّة بنحورنا والسيوف بجباهنا، ثم لا يُعرف لنا حقُّنا وفضلنا، فقاتلوا عَنْ حريمكم، فأي الأمر ما كان فلكم فيه الفضل، فإني قد قَلَبْتُ ظهرَ المِجَنِّ، وأظهرتُ لهم العداوة، ولا قوة إلا بالله".

يشير هذا النص إلى أن ابن الحر متمسك بالقيم الروحية السامية التي أتى بها الإسلام، وأنه مترفع عن التمذهب أو الانضواء تحت لواء حزب من الأحزاب التي كانت تتصارع على السلطة آنذاك، بل يرى نفسه وأصحابه أنهم أفضل من أولي الأمر شجاعة ومنعة وقوة... فهم مؤمنون، أما الولاة أو الأمراء فهم عصاة، أصحاب دنيا، جاحدون وناكرون للمعروف والفضل، لذلك فالموقف الصحيح المتوجب أن يقاتلوهم مستمدين القوة من الله تعالى. هذا النص كذلك بيان سياسي مهم لحركة ابن الحر، رافقه موقف حربيٍ تجلى في مقاتلته كل من يرسله مصعب إليه بلا هوادة، بل إنه يتوعد مصعباً ويهدده بزيارة الخيل له تردي عوابس بفرسانها تتوالى عليه الغارات من كل حدب وصوب، ويذكره بالندم الذي سيلحقه، فإذا لم يفعل ذلك فليس الشاعر جديراً أن يدعى بالحازم البطل، ولا يكون رجلاً موقراً، بل لا يكون جديراً أن يحمي حمى العرض والذِّمار. يقول[1]:

فلا تحسبنّي ابنَ الزُّبَيرِ كناعسٍ	**إذا حلَّ أغفَى أو يُقالُ له ارْتَحِلْ**
فإنْ لم أُزِرْكَ الخيلَ تَرْدِي عَوابساً	**بفُرسانها لا أُدْعَ بالحازم البطلْ**
وإنْ لم تَرَ الغاراتِ من كلِّ جانبٍ	**عليكَ فتَنْدَمْ عاجلاً أيُّها الرَّجُلْ**
فلا وضَعتْ عندي حَصانٌ قِناعَها	**ولا عِشْتُ إلا بالأمانيّ والعِلَلْ**

فبعث إليه مصعب بعدد من القادة هزمهم ابن الحر. ويبدو أن انتصاراته المتكررة على جيش مصعب، والتي أظهر فيها وجماعته بطولات عظيمة- كما يؤرخ الطبري- دفعته إلى العزم على قتال عبد الملك بن مروان، حتى إنه طلب من أصحابه أن يتهيؤوا، لكنه استدرك قائلاً: "إني أخاف أن أفارق الحياة ولم أُذْعِرْ مصعباً وأصحابه، فارجعوا بنا إلى الكوفة". وله في هذه المعارك أشعار حماسية رائعة يصور فيها فرسانه بكل اعتداد وفخر.

---

(1)-الطبري (٣٢/٦) ومعجم البلدان (٣٦٤/٤) وشعراء أمويون (١١٥).

ويبدو أن علاقته كانت تحدد من خلال مواقف معينة، فهو شـديد إذا وجـد أن الأمور داعية إلى ذلك، وهو أقرب إلى العتاب إذا وجد الأسباب غير موجبة. وقـد أورد الطبري[1] سبباً لأوليات العلاقة التي انقطعت بين الشاعر ومصعب، فربطهـا بتقديم مصعب لأهل البصرة، مما دفع عبيد الله بن الحر إلى الكتابة إلى عبد الله بـن الزبير قصيدة يعاتب بها مصعباً، ويخوفه مسيره إلى عبد الملك بن مـروان، وقـد أشار عبيد الله في الأبيات إلى هذه المجافاة، وتقريب مصعب لوزيرين ممـن كـان يحاربهم عبيد الله، وذكر حق بيعته لآل الزبير، وأوضح موقفه منهم فـي المراحـل الصعبة، وما قدمه لهم، حتى إذا استتار الملك، وانقاد الأعداء جفا مـصعب عنـه، وقرَّب كل ذي غشٍ، ومنعه الحاجب من الدخول عليه:

إذا قمتُ عند البابِ أُدخِلَ مُسْلِمٌ ويمنعني أن أدْخُـلَ البـابَ حاجبُـهْ

وهو يحاجج مصعباً بقوة، ويعدّ تقديم الآخرين عليه إهانة ما بعدها إهانـة. ولهذا كانت مخاطبته مباشرة ولا مجال فيها لأية وسيلة:

بـأيِّ بَـلاءٍ أم بأيَّـةِ نِعْمـةٍ يُقـدَّمُ قبلـي مُـسلِمٌ والمُهَلَّـبُ

وأخيراً بايع ابن الحر عبدَ الملك مراغمة لمصعب، واجتمع إليه بشر مـن أهل الموصل بتكريت، وحاول مصعب أن يقضي على ابن الحر، إلا أن جهوده الكثيرة باءت بالإخفاق؛ للشجاعة التي تميز بها هذا الرجل، والقدرة المتمكنة في مجابهة كل القواد الذين بعثهم مصعب. ومضى ابن الحر إلى عبد الملك ومعـه جماعة من أصحابه فأكرمه عبد الملك، وطلب عبيد الله من عبد الملك أن يوجه معه الجند لمحاربة مصعب فتعهد بمده بالخيل والرجال، فسار ابن الحر، ونـزل بقرية يقال لها (بيت فارط) إلى جانب الأنبار على شـاطئ الفـرات، فاسـتأذنه أصحابه في دخول الكوفة، فاغتنم عبيد الله بن عباس المسلمي، خليفة مـصعب على الكوفة يومئذ الفرصة، فسار بجيش كثيف فلقي ابن الحر في عـدة يـسيرة من أصحابه، فقالوا: هذا جيش لا طاقة لنا به، فقال: ما كنتُ لأدَعَهُـمْ، وحمـل عليه حملات ثم عطفوا عليه وكشفوا أصـحابه، وحـاولوا أن يأسـروه، فقـال لأصحابه: انصرفوا سالمين ودعوني أُقْتَل. فقالوا: لا نُسلمك.. فقـاتلوا طـويلاً حتى أثخنوا بالجراح، ثم أذن لهم بالذهاب، فذهبوا وجعل يقاتل وحـده، فحمـل عليه رجل من باهلة مظعنة، وجعلوا يرمونه ولا يدنون منه، وجعل يقول:هـذه

[1]-انظر: شعراء أمويون (٨١-٨٣) والطبري (٧٣٥/٦) وأنساب الأشراف (٢٨٥/٥) ومسلم المذكور في البيتين هو والد قتيبة الباهلي والمهلب هو ابن أبي صفرة العلم المشهور في هذه الحقبة.

نَبْلٌ أم مغازل، فلما أثخنته الجراح خلص إلى مَعْبَر فدخله، ومضى بـه المـلاح حتى توسط به الفرات، فأشرفت عليه الخيل، وفي المعبر نبيط فقالوا: إن الـذي في السفينة بُغْيةُ أمير المؤمنين والأمير، فإن فاتكم قتلناكم، فوثـب إليـه رجـل نبطي قوي فقبض على عضدي ابن الحر، وجراحاته تـشخب دمـاً، وضـربه الآخرون بالمجاديف، فلما رأى ابن الحر ذلك قبض على الذي قبض عليه وأخذ بعضده فعالجه حتى سقطا جميعاً إلى الفرات فغرقا[١]. ولما بلغ عبد الملك خبره جزع عليه وندم على بعثته في أصحابه من غير أن يضم إليه جنداً وقـال: أيَّ مددة حرب، وسداد كان عبيد الله، لا يبعدنك الله يا بن الحر، والله مـا وجـدوك خوَّاراً أو فرَّاراً. وقيل في مقتله غير هذا..[٢]

وهكذا.. وبعد هذه الحياة الحافلة كان الموت قتلاً، أو غرقاً، أو غدراً، النهايـة المشرفة لهذا الرجل الشاعر الذي تكاد تكون شخصيته أسطورية، لما عرف عنهـا من شجاعة ونجدة وحمية، وبسالة والتزام بالمبدأ، وبطولة خارقة أحياناً، ومـشاعر إنسانية نبيلة تتوحد فيها الشخصية التاريخية مع الشخصية الأدبية التـي بوسـاطتها ــ بالشعر ــ رسم صورة واضـحة زاهيـة لحياتـه، صـورة ناصـعة لنـضاله وبطولاته. هذا الشاعر الذي لم يكن لصاً، ولكنه كان ثائراً أساسياً وصـاحب فتنـة على غرار أكابر أصحاب الثورات في ذلك العهد الصاخب. فهو رجل ذو شـهامة، منكر للظلم، راغب في إنقاذ الأبرياء من أنياب الحكام. كمـا يقـول الملـوحي[٣]، وخاصة عندما راح يعبّر عن شعوره بالذنب والتقـصير والتقريـع لعـدم نـصرته الحسين، هذا الموقف الذي خلف أثراً نفسياً تجلّى في تلك المشاعر المختلطـة التـي تصور السياط النفسية التي ألهبت أحاسيسه، وملكت عليه مشاعره، وهـو يراجـع صورة الأحداث، ويقف على مصارع القوم، ويتذكر المؤثرات الحادة التي أخفـق في اتخاذ الموقف المناسب منها. ولعله أدرك وهو يشقّ مـسلك الحيـاة البطوليـة ويسجل لنفسه من خلالها الموقع المرسوم أن النهاية التي انتهت إليها هـذه النفـوس الكريمة التي يقف على أجداثها الطاهرة هي نهاية حتمية لكل نفس اتخذت لها هـذا الطريق ورسمت لها هذا النهج[٤].

---

(1)-تفاصيل الخبر في أنساب الأشراف (٥/٢٩٧).

(2)-الطبري (٦/١٣٥) وتفرد الطبري برواية مخالفة تماماً لما ذكرناه، وفيها أن رجلاً يدعى عياش قتل ابن الحر بسبب هجائه قيس عيلان.

(3) ــ انظر: أشعار اللصوص وأخبارهم (٢٣٩-٢٤٨).

(4) ــ شعراء أمويون (٦و٧).

علاقته بالإمام الحسين (عليه السلام):

ربما لا نكون مغالين إذا ما قلنا: إن شعره الحماسي الحافل بالصراحة، والجرأة والكفاح من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، والثورة على العنف والظلم، وقسوة الحياة كان صدى أو مرآة لحياته الشجاعة، ومواقفه الجريئة التي تموج بالنخوة والمروءة والإقدام والمثل الرفيعة التي حضّ عليها الإسلام العظيم، وبصورة خاصة عندما نتبين دور شعر ابن الحر في حركة التوابين التي ظهرت بعدئذٍ، فأغلب الظن أن ندم ابن الحر وحسرته على خذلانه الحسين وتخليه عنه، وحديثه في شعره عن ذلك، ودعوته إلى الثأر له، وتحريضه على الوقوف في وجه الأمويين من أجله، كانت الإرهاصات الأولى لظهور التوابين، كما يقول الدكتور يوسف خليف[١]، فمن الواضح أن هذه المعاني التي أكثر من ترديدها في شعره هي نفسها الأسس التي قامت عليها حركتهم، وهي نفسها الأهداف التي كانوا يعملون من أجلها.

وقبل أن نقوم بالدراسة النقدية التحليلية للأبيات التي وصلت إلينا والتي تحمل أرق معاني الحسرة والندم، وهو بصدد رثاء الإمام الشهيد الحسين رضوان الله تعالى عليه، نقف وقفة سريعة مع التاريخ لنتعرف أهم ما جرى في هذا الموقف الجلل الذي حدث بين الشاعر والحسين رضي الله عنه. فعلى الرغم من نصائح محبي الإمام كالمخزومي وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير والفرزدق الشاعر، الذين حاولوا إقناعه بعدم الخروج إلى العراق[٢]، لخوفهم من هلاكه، وإشفاقهم عليه، لأن الذين يلحّون على قدومه، قلوبهم معه، وسيوفهم مع بني أمية، إلاَّ أنّه أصرَّ على موقفه حيث قدم الكوفة، وفي كربلاء وقعت المأساة الدامية، تلك الكارثة الكبرى في حياة العرب والمسلمين، حيث قتل رضي الله عنه وحُزَّ رأسه الكريم، بعد أن قاتل قتال الأبطال.

وكان قبل المعركة قد مال إلى السلم فعرض على قاتليه أن يذهب إلى يزيد بن معاوية، أو يعود من حيث أتى، أو أن يدعوه يلحق بالثغور، إلاَّ أن عبيد الله بن زياد رفض كلّ عروضه، وأصر على قتاله فكانت النتيجة المعروفة.. إبان هذه الأحداث وفي أثناء فترة الحصار الذي فرضه جيش ابن زياد على الحسين

---

(1) ــ حياة الشعر في الكوفة (٣٧٩)، للتوسع في دراسة حركة التوابين، ينظر ضحى الإسلام (٣/٣٠٤).

(2) ــ الطبري (٥/٣٨٢)، وما بعدها.

وأصحابه، كان الإمام قد انتهى إلى قصر بني مقاتل فنزل به، فإذا هو بفسطاط مضروب، ويذكر الطبري[1] أن الحسين رضي الله عنه قال: لمن هذا الفسطاط؟ فقيل لعبيد الله بن الحر الجعفي، قال: ادعوه لي، وبعث إليه فلما أتاه الرسول قال: هذا الحسين بن علي يدعوك، فقال ابن الحر: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما خرجت من الكوفة إلا كراهةً أن يدخلها الحسين وأنا بها، والله ما أريد أن أراه ولا يراني، فأتاه الرسول فأخبره، فأخذ الحسين نعليه، فانتعل، ثم قام فجأة حتى دخل عليه، فسلَّم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه، فأعاد عليه ابن الحر تلك المقالة، فقال: فإلاَّ تنصرنا فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع داعيتنا أحدٌ ثم لا ينصرنا إلاَّ هَلَكَ، قال: أمَّا هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله. ثم قام الحسين عليه السلام من عنده حتى دخل رحله.

ومن الواضح أنَّ ابن الحر كان مقدّراً نتائج المعركة غير المتكافئة، وهو المحارب المجرِّب. ولعله كان واثقاً أن الحسين لن يتراجع عن قراره، ومن هنا نشأت حالة الألم النفسي نتيجة الخذلان، وربما كان تأثير هذا الموقف في نفس الشهيد الحسين أقوى منه عند ابن الحر، وذلك لأنه بعد ذلك خفق برأسه خفقة ثم انتبه، وهو يقول كما كان جواب ابن الحر: (إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين) وفعل ذلك ثلاثاً فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، يا أبتِ جُعِلْتُ فِداك، ممَّ حَمِدتَ الله واسترجعتَ؟ قال: يا بني إني خفقت برأسي فَعَنَّ لي فارس على فَرَس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم فعلمت أنها أنفسنا نُعِيَتْ إلينا، قال له: يا أبت، لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق، قال: بلى: والذي إليه مرجع العباد، قال: يا أبتِ إذاً لا تبالي نموت مُحقِّين، فقال له: جزاك الله من ولد خيرَ ما جزى ولداً عن والده[2].

وقد ذكر البغدادي الخبر السابق[3] مضيفاً إليه أنّ أهل الكوفة تحدثوا أن الحسين خرج يريد الكوفة، عندئذٍ خرج عبيد الله بن الحر منها "متحرّجاً من دم الحسين ومن معه من أهل بيته"، وعندما جاءه رسولا الحسين طالبين نصرته، ردّ عليهما ابن الحر قائلاً: إن الذي دعاه إلى الخروج من الكوفة علمه أن الحسين يريدها، ولذلك فرَّ من دمهِ ودماء أهل بيتهِ حتى لا يُعين عليه،

(1) ــ الطبري (٥/٤٠٧).
(2) ــ الطبري (٥/٤٠٧).
(3) ــ خزانة الأدب (١/٢٩٧-٢٩٨).

ويضيف: "إن قاتلته كان عليَّ كبيراً وعند الله عظيماً، وإن قاتلت معه، ولم أُقتل بين يديه كنت قد ضيّعتُ قتله، وأنا رجل أَحْمَى أنفاً من أن أُمكِّنَ عدوّي فيقتلني ضَيْعَة، والحسين ليس له من ناصر بالكوفة، ولا شيعة يقاتل بهم".

ويذكر البغدادي أن ابن الحر قال عندما دخل عليه الحسين طالباً مساعدته: ما رققت على أحد قطّ رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله، فقال له الحسين ما يمنعك يا بن الحر أن تخرج معي؟ قال ابن الحر: لو كنتُ كائناً من أحد الفريقين لكنت معك، ثم كنت من أشد أصحابك على عدوّك، فأنا أحب أن تعفيني من الخروج معك، ولكن هذه خيل لي معدّة، وأولاء من أصحابي، وهذه فرسي المُلْحَقَة فاركبها، فو الله ما طلبتُ عليها شيئاً قطّ إلاّ أدركته، ولا طلبني أحد إلاّ فتّه، فاركبها حتى تلحق بمأمنك، وأنا لك بالعيالات حتى أؤديهم إليك، أو أموت وأصحابي عن آخرهم، وأنا كما تعلم إذا دخلت في أمر لا يضيمني فيه أحد. قال الحسين: أفهذه نصيحة لنا منك يا بن الحر؟..

قال نعم والله الذي لا فوقه شيء، فقال الحسين: إني سأنصحُ لك كما نصحتَ لي.إن استطعتَ ألا تسمعَ صراخَنا ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع داعيتَنا أحدٌ لا ينصرنا إلاَّ أكبَّه الله في نار جهنم، ثم خرج الحسين من عنده.

أما صاحب الأخبار الطوال[1] فيذكر أن الحسين رضي الله عنه أجاب ابن الحر بعد عرضه: "أما إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا إلى فرسك". وقد حرصنا على إيراد الخبر كاملاً لنستنتج منه عدة حقائق، أهمها:

أولاً: إن خروج ابن الحر من الكوفة عندما أيقن أن الحسين رضي الله عنه مغلوب لا محالة، يدل أنه لا يريد أن يشارك في معركة خاسرة سلفاً، وهو إلى جانب ذلك يصرح بأنه متحرج من دم الحسين وآله. وهذا تأكيد لموقف سياسي محايد تجاه طرفي الصراع في كربلاء، إن لم يكن مشفقاً على الحسين، أو لا يريد نقض هدنة مع الأمويين. وفي ذلك تأكيد لسلوك الفارس الذي لا يعرف الغدر أو النكوص.

ثانياً: إن طلب الحسين من ابن الحر نجدته يدل على أنه يعول على الجعفي الذي ربما يغير نتيجة المعركة أو الموقف في حال المشاركة في الموقعة. وهذا دليل على قوة ابن الحر وجماعته.

---
[1] ــ الأخبار الطوال (٢٥١).

ثالثاً: إن تعاطف ابن الحر مع آل البيت سراً أو علانية كان دافعه إلى عدم نصرة الحسين رضي الله عنه، فهو يخشى إن قاتله أن يكون ذلك أمراً عظيماً على الشاعر عند الله تعالى، وإن قاتل معه ولم يقتل ذوداً عنه كان قد ضيع قتله، وهو الرجل الذي لا يمكّن عدوه منه، وهذا الأمر يدل على نظرة واقعية إلى الأمور، وخبرة في (التكتيك)، وهو وسيلة ضغط على الحسين في محاولة لثنيه عن عزمه.

رابعاً: إن مشاعر الرهبة والرغبة والولاء والتعقل كانت خلف عرض ابن الحر لإيقاف رياح الحرب، لكن هذه المشاعر اصطدمت بإصرار الحسين على خوض المعركة، وسوف تتحول هذه المشاعر إلى تجارب شعرية تحمل معاني اللوم والعتب والحسرة والغضب.

خامساً: إن هذه الحادثة وما خلفته من نتائج دامية حزينة هي الدوافع إلى إعلان الشاعر أن قريشاً لا تنصف، وإلى الدعوة إلى الخروج عليها والتمرد، وممارسة العمل الثوري كالإغارة على مال السلطان، وتوزيع الثروة على مستحقيها من الفقراء.

أضف إلى ذلك أن بكاءه على شهداء كربلاء قد عصف بنفسية الشاعر مما أدى إلى الوقوف في وجه الأمويين. ولكن هل كان ابن الحر بهذه المنزلة حتى يعدّه الإمام الحسين مرجح النصر في كربلاء؟...

مقومات شخصية ابن الحر:

إلى جانب هذه النتائج، ننظر إلى الموضوع من جانب آخر يتصل بمقومات شخصيته التي تحدثنا عنها والتي تعرفنا خطوطها الرئيسة من خلال آراء القدماء فيه، ومن خلال مفهوم البطل في الدراسات الإنسانية المعاصرة، فنقول: "إنه من قبيلة (جُعْفَى)[١] القحطانية التي كانٍ من بين رجالها أعلام لهم دور بارز في الإسلام"[٢]. أما عبيد الله فقد شهد صفّين ــ كما ذكرنا ــ أما أولاده: صَدَقَةَ وَوَبْرَة والأسعر، فقد شهدوا معركة دير الجماجم مع ابن

---

(1) ــ اشتقاق (جُعْفَى) من قولهم: جَعَفْتُ الشيء أجعَفَهُ جَعْفَاً إذا اقتلعته من أصله، حتى الجعف، أي انصرع، واجْتَعَفَ الشجرة، قَلَعَها، والسيل الجاعف: الجارف لكل شيء ذاهب به. ديوان الأدب (٤٠٦/١)، المعجم الوسيط مادة جَعَف.

(2) ــ جمهرة أنساب العرب (٤٠٩)، وما بعدها.

الأشعث. أما الشاعر فقد أجمع القدماء[١] تقريباً على أنه كان رجلاً مــن خيــار قومه صلاحاً وفضلاً وصلاة واجتهاداً، ويضيف البغدادي[٢] أنه كان شــجاعاً لا يعطي الأمراء طاعة. ويذكر أبو حنيفة الدينوري[٣] أنه كان من أشــراف أهــل الكوفة وفرسانهم. ويرى الطبري أنه ما كان في الأرض عربــي أغيــر علــى حرة، ولا أكفّ عن قبيح وعن شراب منه[٤] ويذهب الجاحظ إلى أن الناس قــد ضربوا المثل بعبيد الله في أثر الحظّ في نباهة الفرسان[٥]، بل إنه ينظــر إليــه على أنه رمز ومثل أعلى للفروسية. والبطولة الخارقة، حيث يقول[٦]: "وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة، ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعضُ مَنْ هو أولى بذلك منه، ألا ترى أن العامةَ ابنُ القرية عندهم أشهر فــي الخطابــة مــن سحبان وائل، وعبيد الله بن الحر أذكر عندهم في الفروسية من زهير بن ذؤيب. وكذلك مذهبهم في عنترة بن شداد وعتبة بن الحارث بن شــهاب".هــو أشــبه بفرسان الملاحم الذين وصلت شهرتهم عند العامة إلى مصاف أبطال الخوارق، وربما كان هذا الأمر دافعاً للهيثم بن عدي إلــى أن يعــدّه مــن النَّــوكْى[٧] أي الحمقى في المتهورين، أو من فتاك الإسلام[٨].

أما نحن فننظر إلى مقومات شخصيته عموماً على أنه الفارس البطل، وأن هذه الشخصية ليست وليدة هذه الحقبة الصعبة من العصر الأموي، وإنمــا هــي امتداد لشخصية الفارس في الجاهلية والإسلام. إنها شــكل إيجــابي متطــور لشخصية الصعلوك الثائر الناقم، ذلك أنه لم يكن للفارس الجاهلي أية تعزية فيما بعد الحياة، وربما كان يعتقد أن انتصاره في المعركة أو هزيمته فيها يتوقفــان على إرادته هو، وليس على الإرادة الإلهية، وكانت الفروسية الجاهليــة مبطنــة بمرارة زالت في الإسلام، إذْ صار الفارس يعتمد على عون الله، وصار للشهادة جاذبية داخلية من نوع آخر.[٩]

---

(1) ـــ انظر تاريخ الأمم والملوك (١٢٨/٦) والكامل في التاريخ (٢٨٧/٤).
(2) ـــ خزانة الأدب (٢٩٧/١).
(3) ـــ الأخبار الطوال (٢٥٠).
(4) ـــ تاريخ الأمم والملوك (١٢٧/٦).
(5) ـــ الحيوان ١٠٣/٠٢).
(6) ـــ البيان والتبيين (٢٠/١ و٢١).
(7) ـــ نفسه (٢٤٩/٢).
(8) ـــ المحبّر (٢١٢).
(9) ـــ مقدمة للشعر العربي (١٨).

وربما كان من أهم معاني البطولة أنها "تطهِّر الحياة، وتصعّدها وتعيد إليها زهوها وامتلاءها، وفي البطولة تتغير صورة العالم، يصبح الوجـود انعكاسـاً للذات في مثالية شخصية، ويصبح العالم حركة اقتحام، وفروسية، ويستـسلم[1]". ألم يكن ابن الحر كذلك؟... إن من يقرأ في شعره الحماسي الذي يتحـدث فيـه عن معاركه وأيامه وبطولاته ومغامراته، ومن يقرأ أخباره في كتب التاريخ لابد أن يصل إلى هذه النتيجة، إنه بالبطولة يهزّ الحياة، يفتحها، يقتحمها، ألم يقـتحم السجن لفكّ أسر زوجته؟ ألم يقم بغارات سجل فيها كل معاني المغامرة...؟

ولكن ما طبيعة هذه الفروسية وما سمات هذه البطولة؟ إذا كانت فروسـية عنترة وأصحاب الخيل في الجاهلية ذات وجه أخلاقي نبيل، وإذا كانت حركـة الصعلكة تعني في جملة ما تعنيه فروسية اللا انتماء لمجتمع القبيلـة، أو الـرد على رابطة الدم غير المعترف به، لمن كان ابن أَمَة، فإن فروسية ابـن الحـر وجماعته ــ كما تشهد وقائع التاريخ ــ فروسية تستند إلى الـشعور بالواجـب والإرادة الحرة الواعية، التي تعـي مـا تفعـل، إرادة التغييـر وهـدم قـانون الضرورة، والأمر الواقع. إنه وأصحابه جماعة بدأت بالتمرد على كل معطيات السياسة بعد صفّين، ثم تحولت إلى جماعة منظمة تهدف إلى إثبـات الوجـود، والعيش بكرامة، وإن كان الثمن غالياً: الكفاح، السجن، القتـل..؟ وقـد يقتـرن بالعمل هذا سليقة الشعر المعبِّر عن الشجاعة، وهذا ما حدث لابن الحر عنـدما تكامل شكل الحياة مع معانيها في سيرته وشعره.

إننا حين نطلق عليه صفة البطل، تنبعث في مشاعرنا وأخيلتنا ظـلال معنويـة ذات سحر خاص، وإذا ما حاولنا أن نحدد هذه الصفة، قلنا: إن البطـل فـي كـل عصر، وعند كل أمة يستمد معناه من حالة الأمة والجماعة، ومـن عقليتهـا ومـن عقيدتها، فاليونان في عصورهم الأولى كانت حياتهم مملـوءة بالآلهـة وأنـصاف الآلهة. لكل قوة طبيعية إله، فخلعوا على البطل نوعاً من التقديس ونسبوا إليـه كـل ما يتخيلون من وجوه الكمال، وقدّسوه تقـديس الآلهـة، وعبـدوه عبـادة الآلهـة. والعرب في جاهليتهم لما كانت حياتهم حياة حرب، كانت أكبر فضائلهم الـشجاعة، وكان أفضل رجل في نظرهم مَنْ حَمَـى العـشيرة وذادَ عنهـا، ونكـل بالقبائـل الأخرى، كان البطل في نظرهم هو الشجاع الفتّاك بالخـصوم العلـيم بـالحروب، السفّاك للدماء، الذي يتمثل في عنترة العبسي وأمثاله[2].

---

[1] ــ نفسه (١٦).
[2] ــ انظر : فيض الخاطر، أحمد أمين (٨/١٧ و٢٠).

وهكذا، كما يضيف المرحوم أحمد أمين: إن البطولة تكاد أن تكون مطمح أنظار كل أمة في كل موقف من مواقفها، فإذا تغير موقف الأمة تغير تقويمها للبطل والبطولة. فالبطل هو الذي تتجسد فيه آمال الأمة وتتخلّص به من آلامها. أما العناصر التي يتكون منها البطل فمن أ همها:

١ ــ أن يكون مصدر خير كبير لقومه، فإن اتسعت بطولته وزادت قيمته، كان مصدر خير للإنسانية.

٢ ــ قوة الشخصية، أي أن يحمل الناس على إجلاله وإعظامه والاقتداء به.

٣ ــ النزاهة والاستقامة، والنبل والحنكة السياسية.

٤ ــ التضحية والنظر إلى القتال على أنه سلاح في وجه قدر الموت المحتوم.

٥ ــ الاستناد إلى موقف فكريّ أو اجتماعيّ أو سياسي والدفاع عنه.

٦ ــ التمتع بالمشاعر الإنسانية الفياضة، والبعد عن الغرور، ومراجعة الموقف الذي يخطئ في اتخاذه.

وإذا كان البطل "رجل الأحداث أو صانع الأحداث" كما يقول (سدني هوك)[١] فإنه يحتاج إلى مساعدة فريق أو طبقة اجتماعية تشدها إليه وشائج المصلحة أو الهدف، وبذلك يتميز البطل بطريقة قيادته ونشاطه، ويصبح رمزاً لدى جماعته، لأنه يحقق هدفاً أساسياً هو (الالتزام) أو الارتباط بقضية اجتماعية أو سياسية. هذا على الصعيد العملي، أما على صعيد الفن ــ وقد كان ابن الحر شاعراً ــ فإن "إيديولوجية " الشاعر تنبع أساساً من إحساسه الذاتي بالقضايا المتصلة بكيانه، سواء أكانت اجتماعية أم سياسية اقتصادية، ضمن منظور مأساة الإنسان. فالشعر لقاء حارّ مباشر مع الذات، فالإيديولوجية الشعرية تمثل ذروة الالتحام بين نفس الشاعر وما يقوله من الشعر، هي الروح الشعرية التي ينطقها الشاعر كلمات[٢].

وبذلك حددنا أهم مقومات شخصية ابن الحر الإنسان والفنان، وبيّنا أهم نوازع قدرته بجلاء، وكيف ارتسمت أنماط سلوكه بلا "رتوش"، وهي حدود

---

(1) ــ البطل في التاريخ (١٥٥).

(2) ــ الإيديولوجية والشعر، بحث في مجلة الشعر/ عدد نيسان ١٩٦٤م، يرى الدكتور شكري أن الالتزام بمعناه الإيديولوجي هو الارتباط بقضية اجتماعية أو سياسية، وهذا يعني أن الكاتب ينبثق تفكيره وفنه عن نظرية معينة في المجتمع، ص ٨٣.

تمنح الشاعر من القابليات ما يمكنه من الوصول إلى ما هو أقدر على استيعابه، لأنه مؤمن بقدره المحدد. وقد أدرك وقائع حياته القائمة على استمرار الحــرب، وأدرك قدرته في تحمل مافي هذه الحرب من أعباء له ولجماعته التــي كــان يغير بها، وقد حبب له هذا الإدراك ألا يكون مقتصراً على الاستبــسال. ولكنــه يردّ الآخرين إلى ميدان الحرب إذ خرجوا بالدعاء والتحريض، على الرغم مــن أفواه الطعن التي أثخنت الأجساد، وتدفق الدم والألم مثل حرّ الوقــود[١]. وفــي هذا المقام لا نودّ الحديث عن ابن الحر الشاعر الذي عزف أناشيد البطولة فــي معارك النصر. راغباً في الانعتاق والمجد، كذلك لا نريد أن نتوقف عند رمــز المرأة في شعره حيث ظلت رمزاً من رموز الفارس الشهم، ولا الحــديث عــن السلاح، عدة النصر، ولا السجن حيث قتل الحرية ومحاولة الإفلات من القيود، والأصحاب رفاق السلاح، أو شعر العتاب والهجاء والفخر، ذلــك لأنــه جعــل عالمه الشعري يحتضن هذه المعاني التي سوف نخصص لهــا الحــديث فــي الفصل الثاني، على الرغم من قلة الأبيات التي وصلت إلينا، وإن كنا نــرى أن ما وصل من شعره المعتمد في هذا البحث[٢] إنما هو أقلّ من القليل، لأن جــزءاً كبيراً من شعره تضمنه كتاب أشعار اللصوص للسكري وهــو كتــاب مفقــود. وكذلك لأن أناشيد الفارس تاريخ لملامحه وأزمات حياتــه، ولعــل أهــم هــذه الأحداث ما جرى إبان كربلاء وبعدها، وربما تدخل العامــل الــسياسي فــضيّع الكثير من هذا الشعر الذي يذكّر الناس بما جرى لآل البيــت علــى يــد والــي الأمويين على الكوفة...

هل نظر ابن الحر إلى الوطن أو الموطن ــ البصرة والكوفة ــ على أنهما نهاية حدود العالم، لا، إنه يرفض أن يكون له أرض تقيّده بإقامــة، والثــائر لا وطن له، لأنه دائب الحركة والتنقل والترحال خلف المجد[٣]:

... فلا كوفةٌ أميّ ولا بَصْرَةٌ أبــي   ولا أنا يَثْنِيني عَنِ الرِّحْلَــةِ الكَــسَلْ

وهذا الرجل الذي ظل يجد نفسه على خير أحوال الرجل المؤمَّل المرتجى، حين يخاطب أحد أبطاله: هيّا إلى المعركة فقــد دنــا الــصبح، ولــذاك: ســر،

[1] ــ شعراء أمويون (٦٨-٦٩، وانظر: الشعراء الصعاليك ــ عطوان (١١٧).
[2] ــ اعتمدنا ما جمعه الدكتور القيسي في كتابه (شعراء أمويون)، وكذلك الاستدراك أما الأبيات التي لم يذكرها فسوف نشير إلى مصدرها في هامش هذا البحث.
[3] ــ الطبري (١٣٢/٦)، وشعراء أمويون (١١٤).

وللآخر: ارتحل، ولذلك من بعد أَسْرِجْ. إنَّ لهذا المظهر السلوكي دلائل على كون شخصيته قيادية، مطاعة[1]:

ألا حَبَّذا قَوْلِي لأَحْمَرِ طَيِّئٍ ... ولابنِ خُلَيْدٍ: قد دنا الصُّبْحُ فادْلجِ

وَقَولي لهذا: سرْ وقولي لذا ارتحلْ ... وقولي لذا منْ بَعْدِ ذلك أَسْرِجِ

وَسَيْرِي بفتيانٍ كرامٍ أُحبّهمْ ... مُغِذّاً وضوءُ الصُّبْحِ لم يَتَبلَّجِ

يُطيعون متْلافاً مُفيْداً مُعَدَّلاً ... به يَرْتَجِي عَفْوَ الغِنَى كُلُّ مُرْتَجِ

الفارس النادم على خذلان الحسين:

هذا الشاعر الإنسان ربط المعنى البطولي بالبعد الأخلاقي للموقف التاريخي في موقفه من الإمام الحسين رضي الله عنه، ذلك الموقف الذي أصبح مغايراً لموقفه منه قبل حادث الاستشهاد المؤلم، إذ وضع نفسه في جانب الناقمين، ولهذا ظلت بعدئذٍ قصائده في الحسين، وفي تأنيب نفسه، تفيض بمشاعر الرثاء الحزين، ومعاني الندم الممضّ، والشعور بالتقصير الذي أ فقده كثيراً مما يجب عليه أن يؤديه، حين دعاه الحسين لنصرته، ويؤكد كذلك ما جاء في الأخبار مما يدعم الخبر الذي تضمن أنِ الشاعر صمّم على تركه وعدم الاستجابة، ولهذا كان رثاؤه للحسين نسيجاً من مشاعر التلهف إلى التكفير عن هذا الخطأ القاتل، واللوعة التي يبعثها تذكر الحادثة وما جرى فيها، وما سال من دماء الأبطال والنساء والأطفال على أيدي قساة، غلاظ القلوب، وليس بينهم وبين حرمة آل البيت أي حجاب. كذلك تتعالى من هذا الشعر أنفاس التأثر الذي يتجاوز حدّ الحزن السرمدي، والاندفاع الذي حدّد موقفاً سياسياً فيما بعد أدّى إلى إعلان "أن قريشاً لا تُنْصِف". وتتجلى معاني هذا الرثاء المؤلم والندم المفجع في هذه الدراسة النقدية التحليلية لهذا الفن الذي أقامه ابن الحر على ثلاثة أ ركان هي: رثاء الحسين، هجاء قاتله ابن زياد، الندم والحسرة اللذان أبكيا الفارس المغوار.

ففي الأبيات التالية: التي يرثي بها الحسين بنَ عليّ رضي الله عنهما، يعبّر عن ندمه على تركه إجابة الحسين حين دعاه إلى نصرته قائلاً[1]:

---

[1] ـــ وصف الجاحظ أحد رجال ابن الحر وهو الغُداف، بأنه لم يكن في الأرض أشدّ منه، كان يقطع على القافلة وحده، بما فيها من الخفراء والحماة. انظر رسائل الجاحظ (١/١٩٣)، والأبيات في شعراء أمويون (١٠١)، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

فَيَالَكِ حَسْرَةً ما دُمْتُ حيَّاً — تَرَدَّدُ بَيْنَ حَلْقِي والتَّراقِي

حُسَيْنٌ حين يطلبُ بَذْلَ نَصْرِي — على أَهْلِ العَداوةِ والشِّقاق

ولو أنِّي أواسيهِ بنفسي — لَنِلْتُ كرامةً يومَ التَّلاقِي

مع ابنِ المصطفى نفسي فداءٌ — فيالله مِنْ ألمِ الفِراق

فما أَنْسَى غداةَ يقول حُزناً — أَتَتْرُكنَا وتُزْمِعُ لانطلاق

فلو فَلَقَ التَلَهُّفُ قَلْبَ حيٍّ — لَهَمَّ اليومَ قلبي بانْفِلاق

فقد فاز الأُلى نصروا حُسَيْناً — وخاب الآخرونَ أولو النِّفَاق

لقد هزته المأساة التي تركت الحسين وأصحابه صَرْعَى على أرض كربلاء الحزينة، فأثارت في نفسه مشاعر الحسرة التي يعبر عنها في هذه الأبيات بأسلوب فني جميل مؤثر، يحمل العاطفة الحزينة، ويبوح بكل معاني الصدق، ويرفض النفاق والرياء. فهو لاينكرُ تخليه عن الحسين حين طلب بذل نصره، ويصف خادعيه في القدوم إلى الكوفة وقاتليه بأهل الشقاق والعداوة، ويتمنى لو افتداه بنفسه لينال رضى الله تعالى يوم الحساب. لكن ألم الفراق وحزن الشاعر على خذلانه، أو عدم نصرته الحسين رضي الله عنه، يبدوان في هذا المعنى النبيل المؤثر الذي يصف فيه قلبه بأنه يكاد ينفلق حسرة وندماً، فقد خسر شرف نصرة الحسين، ومن ثمة الفوز بالجنة، فخاب هو كما خاب المنافقون...

إنه الفارس الذي يذرف دموع الندم، والألم والتلهف والخسران، هذه الدموع التي تركت في نفوسنا أثراً كبيراً قوياً لصدق قائلها، وهو الرجل الذي لم يعرف الهزيمة الحربية في حياته، فكيف بالهزيمة النفسية التي تبكيه...

وقد ذكرنا آنفاً أن الشاعر خرج من مجلس عبيد الله بن زياد مغضباً، لأنه أنَّبَه على موقفه من قتله ابن المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليه الشُّرَطَ فأجابهم: "أبلغوه عني أني لا آتيه طائعاً أبداً"[٢].

---

[1] ــ الأخبار الطوال (٢٦٢)، وشعراء أمويون (١٠٩-١١٠)، وفي أشعار اللصوص وأخبارهم (٢٧٥/١)، اختلاف في رواية بعض الألفاظ، وفضلنا رواية الأخبار الطوال.

[2] ــ الخبر و الأبيات في : الطبري (٤٧٠/٥)، الكامل في التاريخ (٢٩٨/٤-٢٩٩)، مع اختلاف في بعض الألفاظ عن روايتها في شعراء أمويون (١١٥)، وأشعار اللصوص (٢٨٣/١).

وقال: "لئن استطعتُ ألاّ أرى له وجهاً لأفعلن"، ورثى الحسين وأصحابه الذين قتلوا معه بادئاً القصيدة بهجاء ابن زياد قائلاً:

يقولُ أميرٌ غادرٌ وابنُ غادرٍ ... ألا كنتَ قاتلتَ الشهيدَ ابنَ فاطمهْ

ونفسي على خِذْلانِهِ واعتزالِهِ ... وبَيعة هذا الناكث العهدِ لائمَهْ

فَيَا نَدَمي ألاَّ أكونَ نَصرتُهُ ... ألا كلُّ نفسٍ لا تُسَدِّدُ نادِمَهْ

وإنِّي لأنِّي لم أكن من حُماتِهِ ... لذو حسرةٍ ما إن تفارقُ لازمَهْ

هل ثمة تعبير يفي بمعاني التقريع أشدّ وضوحاً من هذا؟.. اللوم، الندم، الخذلان، هي مقومات هذا التعبير المؤثر. ثم يتابع وصفه لآلام الحسرة، فيدعو بالسقيا لأرواح الذين نصروه من الشهداء الصادقين الذين وقف الشاعر على مصارعهم قائلاً:

سقى الله أرواحَ الذينَ تَأَزَّرُوا ... على نَصْرِهِ سُقْيَا من الغَيْثِ دائمهْ

وَقَفْتُ على أجداثِهم ومجالهمْ ... فكادَ الحَشَا يَنْقَضُّ والعينُ ساجِمَهْ

ثم يصف استبسالهم، وتضحيتهم بأنفسهم في سبيل نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتفتاً إلى مشاعره التي تفيض بالأسى والحزن والدموع:

لَعَمْرِي لقد كانوا مصاليتَ في الوغى ... سِرَاعاً إلى الهَيْجَا حُماةً خَضَارِمَه

تآسَوْا على نَصْرِ ابنِ بِنْتِ نبيِّهِمْ ... بأسيافِهِمِ آسادَ غِيلٍ ضَرَاغِمَه

ثم ينتقل من وصف مشاعره الخاصة تجاههم إلى وصف مشاعر الناس عامة نحوهم: فكل نفس مؤمنة على الأرض أضحت حزينة باكية لمقتلهم، ليس لأنهم شهداء فحسب، بل لأنهم أفضل الناس طرًّا:

فَإنْ يُقْتَلُوا فكلُّ نفسٍ تقيَّةٍ ... على الأرضِ قد أضحَتْ لذلك واجِمَهْ

وما إنْ رأى الرَّاؤونَ أفْضلَ مِنْهُمُ ... لدى الموتِ ساداتٍ وزُهْراً قَماقِمَه

ويوجِّه الكلام من جديد إلى الأمير الغادر القاتل الذي يعاتب ابن الحُرّ ويرجو وداده، فيعلن أنه لن يكون معه أبداً، لأنه من الناقمين عليه، بل إنه يفكر في أن يشنّ عليه حرَباً تطحنه، فتقضي على ظلمه وباطله وغدره، وكأنَّ هذا الوعيد مما يخفف عن الشاعر بعض آلام الندم، ويواسيه في حسرته:

أَتَقْتُلُهم ظُلْماً وترجو وِدَادَنا ... فَدَعْ خُطَّةً ليست لنا بِمُلائِمَهْ

لعمري لقد راغَمْتُمونــا بقــتلهمْ	**فكــم نــاقمٍ منّــا علــيكم وناقِمَــهْ**
أَهُمُّ مِــراراً أَنْ أَسِــيْرَ بِجَحْفَــلٍ	**إلى فِئَةٍ زاغَتْ عن الحَــقِّ ظالمــهْ**
فَكُفّوا وإلا زرتُكــم فــي كتائــبٍ	**أَشَدَّ عليكم من زُحــوف الديالِمَــهْ**

إنه التعبير القوي الجريء عن السخط الشديد الممتــزج بالحــسرة والنــدم والبكاء الحار، تلك المشاعر والانفعالات التي لم تفارق ابن الحر حتى لو غــادر الديار التي تطهرت بدماء الشهداء من أهل الحسين وأصحابه إلــى المــدائن أو غيرها. إنها أحزان يتَّقِد فيها لهيب الغضب، وتشع منها روح الثورة والــسخط، دون خوف من بطش ابن زياد الذي يصفه بالغدر واللؤم والظلــم، والمراوغــة، والخسة، وكأننا إزاء رجل يُحمّل نفسه تبعات هزيمة منكرة، ولا يجد ما يُكفِّــر به عن آلامه سوى الدعاء بالسقيا، وهذه التحية النبيلة يلقيهــا علــى الأجــداث الطاهرة، أو الإعداد لحرب تزيل من الوجود دولة ابن زياد الزائغة عن الحــق، بجيش ضخم قوي أشد عليهم من جيوش أعدائهم من الدَّيْلَمْ.

ومن ناحية أخرى فإن القصيدة تبوح بموقف سياسي جديــد لابــن الحــر يتجلى في عدائه للأمويين، لعل ذلك يؤكد معاني الندم التي ما فتئ يعبّر عنهــا ويكررها في كل تجربة شعرية، وهذا الملمح التعبيري يعطي القصيدة الميميــة هذه صفة الإيجابية، وبذلك تختلف عن القصيدة السابقة (القافية)، التي اتــصفت بسلبية الموقف السياسي والتعبيري.

وكما ذكرنا فإن الشاعر لا يمل من تكرار هذا المعنى في أبياته الــشعرية، وكأن هجاءه لابن زياد يخفف بعض آلام سياط النفس، ويهدهــد آلام الخــذلان التي استقرت في أعماقه فأقضّت مضجعه، وقرّبته زلفى من دائرة التــصديق. فهو في الأبيات التالية يقارن بين مــشهدين متناقــضين تمامــاً، الأول : يمثــل الأمويين وهم نائمون سعداء يعيشون نشوة النصر، وهم بذلك مضيعو الإســلام؛ لأنهم يؤمّرون الحمقى على الناس، ومع ذلك يدوم نعــيمهم علــى الــرغم مــن ظلمهم وضلالهم وفساد حكمهم، والثاني: مشهد أولئك الشهداء الأبــرار الــذين تضرّجت أجسادهم الطاهرة بدماء الشهادة، وبقتلهم ضاعت قيم الدين الحنيــف، وتحوّل العدل إلى ظلم، والخير إلى شر، يقول[1]:

---

[1] ــ شعراء أمويون (١١٥)، وفي أشعار اللصوص (٢٨٣/١):
حياتي أو ملقي أمية خَزْيَةً ...... ولعل رواية القيسي أصوب. والعميم: كل ما اجتمع وكثر.

يَبِيتُ النَّشاوى مِنْ أُميّــةَ نُوَّمَــاْ   **وبالطَّفِّ قَتْلَى لا ينــامُ حميمُهــا**

وما ضَــيَّعَ الإســلامَ إلاّ قَبيلــةٌ   **تَــأَمَّرَ نَوْكَاهــا ودامَ نعيمُهـــا**

وأضحتْ قناةُ الدين في كفِّ ظالمٍ   **إِذا اعوجَّ منها جانــبٌ لا يُقِيمُهــا**

وكعادته في خاتمة أنغامه الشعرية الشجية، يهدّد الأمويين ويتوعّدهم بأنَّــه سيحاربهم وإلاّ فسوف تظل دموعه على الحسين منهمرة:

فأقسمتُ لا تنفكُّ عينــي حزينــةً   **وعَيْنِي تبكي لا يجــفُ سُــجُومُها**

حياتي أو مُلْقِــي أميَّــةَ جِزْيَــةً   **يُذَلُّ بها حتى الممــات عَميمُهــا**

ومثلما قارن قبل قليل بين مشهدين متناقضين، يعلن هنــا أنــه ســيظلُّ باكيــاً متحسراً إلى أن يُذِلَّ رأسَ الأمويين بإرغامهم على دفع الجزية جزاء لما اقترفــوه من آثام بحق الأمة عامة، وأطهر شهدائها الحسين عليه السلام، بصورة خاصة.

وكما ذكرنا آنفاً فإن هذه الأنغام الحزينة التي بثت لنا رثاء الحسين رضــي الله عنه، وأصحابه وأطفاله وآل بيته، لا يمكن أن تكون بهذا الكم القليل؛ وذلك لأن هــذا الغرض الشعري الوجداني الصادق يفتح المجال واسعاً أمام قــيم تعبيريــة وفنيــة تحملها لتعبّر عن رغبة الشاعر في الاعتراف بذنبه تكفيراً عنه. يؤيد هــذا الــرأي ربط الرثاء بهجاء الأمويين وهم الحكام المنتصرون، الأقوياء، وكذلك بالتهديد الــدائم بالحرب، وبشنّ الغارات ضدهم، وهو الشاعر الفارس (الفاتك) الــذي كــان شــعره صدى لمسيرة حياته، يضاف إلى ذلك أنه ما برح يذكر هذه الحادثة الجليلة في كــل مناسبة. فعندما دعاه مصعب إلى نصرته في قتاله للأمويين وأهل الشام مقابــل أن يكون لابن الحر خراج مقاطعة (بادوريا) أجابه الجعفي قائلاً[1]:

أيرجو ابن الزُّبَيْرِ اليومَ نصري   **لِعَاقِبــةٍ ولــم أَنْــصُرْ حُــسَيْنا؟**

فهل يرتقي طلب مصعب إلىمنزلة طلب الحسين، وهل ينــصره بعــد أن خذل حِبَّ النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد علمنا كيــف كــان يــزدري مصعباً ويعاتبه ويعرّض بخزيهِ. وثمة غرض شعري يهجو فيــه ابــن الحــر مصعباً ويفتخر بانتصاراته المتعددة عليه، كما سنرى.

وهكذا تبدو أ مامنا ملامح عامة لفن الرثاء الممض الذي تَقَــرَّبَ بــه ابــن الحر زلفى من دائرة الغفران لذنب بدأ بخذلانه الحسين واستمر بعد مقتله، وفي

---

(1) ــ شعراء أمويون (١١٧).

رثاء الحسين أحسسنا برياح الثورة على العنف والظلم وقسوة القلـوب، بـل إن معاني هذا الفن ــ على قلة عدد أبياته ــ جعلتنا نشارك الشاعر وجدانياً، فنشفق عليه لما لاقاه من عذاب الضمير وآلام الحسرة والألم، والـصراع الحـاد بـين نشوة الانتصارات وعذاب النفس المتخاذلة.

الخصائص الفنية:

كانت المعاني مرسومة بلغة شعرية سهلة مأنوسة، مـن خـلال تراكيـب متناسقة مترابطة، وقيم فنية تكاد تخلو من الصور الفنية أو البلاغية، لأن المقـام هنا لا يفسح المجال لأي تأنق في اللفظ أو ميل إلـى التعبيـر الاسـتعاري، أو إظهار المقدرة على التصوير الرامز، وهذا ما جعل التجربـة الـشعرية مكثفـة جداً، حتى إن بيتاً واحداً كان بديلاً لقصيدة في أداء المعنى ووضوحه، أو البوح به.

كذلك لم نلحظ أنّ ابن الحر كان ملتزماً بالتقليد الشعري السائد في عـصره وفي العصور التالية، وبخاصة ما يتعلق بالبدء بالمقدمة الطلليـة أو الغزليـة أو الوصفية، ولكنه كان يلج موضوعه مباشرة دون تمهيد. وهـذا عائـد إلـى أنّ أشعاره تاريخ لحياته وفعله من جهة، وبيانات ثورية من جهة أخـرى، أضـف إلى ذلك أنَّ أشعاره هذه ماهي إلاَّ غذاء يبعث في نفسه نـوازع الانعتـاق مـن سيطرة الألم النفسي الذي كان يثيره دائماً الأسف لعـدم إسـهامه فـي نـصرة الحسين رضي الله عنه، مما أثار لواعج الكآبة والحزن، والتقريـع والغـضب والوعيد والتهديد. وقد فجَّرت هذه المعاني وأعلنتها تلك العاطفة الصادقة القويـة المتّقدة، التي كانت صدى لموقف ديني وأخلاقي مبني على الالتـزام بالإسـلام، وبحب آل البيت جميعاً، جسّد ذلك سلوك شاعر قوي الشخصية، نزيه الموقـف، مؤمن ورع تقي غيور على أبناء الحرائر، لا يعطي السلطان الجائر طاعة، ولا يتعرض لمال أحد أو دمه، يكفّ عن القبيح، وعن الـشراب، بـل إن القـدماء أجمعوا على أنه كان كذلك، ومن هنا كان صدقه في رثائه الحسين الشهيد، وفي التعبير عن نقمته على قاتليه، ولذلك كان رثاؤه متشحاً بلون الـسواد والكآبـة، يفيض بمعاني الألم والندم.

وكانت القصيدة أو المقطوعة تشكل وحدة عضوية بكـل مـا يعنيـه هـذا المصطلح النقدي المعاصر من معنى. فهي تتناول فكرة واحدة، مزجاة بعاطفـة واحدة، لأنها تحقق تطوراً في البناء الفني للقصيدة قائماً على أسـاس التـرابط

المنطقي وتسلسل أفكار الموقف الشعري. وما قلة أدوات الـصنعة، أو الـصبغ البديعي إلا خير دليل على أن القصيدة عنده حديث مباشر، وبث وجداني ذاتـيّ حارّ، وتجسيد لفظي لموقف واقعي، ولذلك قلنا: إن الشعر عنده وسـيلة لخدمـة القضية والتعبير عنها، وليس غاية.

وفي ذلك ــ على ما أظن ــ ما يكفي للتدليل على أن شعر الرثاء عند ابن الحر إرهاص مهم للشعر الذي قيل في رثاء آل البيت فيما بعـد، ذلـك الـشعر الذي علت فيه رابطة العقيدة الدينية على صوت الانتماء القبلي، والـذي حـدّد وظيفته في الكفاح لتأكيد مسألة الخلافة وحق الطالبيين فيها، وجـور الأمـويين، وغير ذلك من الخصائص المعنوية والفنية التي تلقاها في شعر الكميت بن زيـد الأسدي وكثيّر عَزّة وغيرهما من الشعراء الذين أكثروا من ترديد معاني التوبـة والأسى والدعوة إلى الثأر لمصرع الحسين، والتحريض على الوقوف في وجـه الأمويين من أجله، وذلك الإكثار من التعبير عن معاني الندم والحسرة ومشاعر الحزن التي تنتاب الشاعر وهو يراجع صورة أحداث كربلاء... وهذا ما وجدناه عند ابن الحر إلى جانب إخفاقه في اتخاذ الموقف المناسب، ولعلـه أدرك وهـو يشقّ مسلك الحياة البطولية، ويسجل لنفسه من خلالهـا الموقـع الموسـوم أن النهاية التي انتهت إليها هذه النفوس الكريمة هي نهاية حتمية لكل نفس اتخـذت هذه الطريق ورسمت لها هذا النهج، أليس هو القائل:

أرى الدهر لي يومين: يوماً مُطَرَّداً   شَرِيْداً، ويوماً في الملوكِ مُتوَّجا

وكذلك:

وإنّي لأَنِّي لم أكنْ مـن حُماتِـهِ   لذو حسرةٍ مـا إن تُفـارقُ لازمَـهْ

ولذلك عاش ابن الحر رهين الصراع بين أناشيد البطولة المنتـصرة، وآلام الحسرة والندم، فكان شجاعاً، قوياً، صادقاً في كـلا المـوقفين. كـذلك تتجلـى شاعريته، ونتعرف مواقفه في عزفه أنغاماً شـعرية أخـرى تناولـت المـديح والهجاء والعتاب، تلك الأشعار التي لا تنفك مرتبطة بشخصية البطـل، وأيامـه ومعاركه، والسجن، والمرأة، والحكمة، وغيرها مما هو موضوع حـديثنا فـي الفصل القادم.

¾ ¾ ¾

الفصل الثاني:
أنغامه الشعرية الأخرى

شعر الحماسة والبطولة:

تحدثنا في الفصل الأول عن مقومات شخصية ابن الحر، وارتباطها بفن الرثاء الحزين الباكي للإمام الحسين رضي الله عنه وآله، فبيّنا كيف كان شعره تأريخاً لحياته، وبيانات ثورية تبعث في نفس المتلقي نوازع الانعتاق من سيطرة الألم النفسي الذي أثاره في نفس الشاعر موقفه المتخاذل، أو المرسوم مسبقاً بعدم نصرة الحسين، مما فجر لواعج الأسى والحزن والغضب والوعيد والتهديد، عبّر عن هذه المعاني سلوك هذا الشاعر الذي اتصف بقوة الشخصية، ونزاهة الموقف، والإيمان والورع والتقى، والغيرة على الشرف والدار، ومن هنا كان رثاؤه كئيباً حزيناً، متّشحاً بلون السواد، يفيض بمعاني الألم والندم، بالإضافة إلى أنه كان صادقاً وواضحاً.

فإذا كانت شخصية الشاعر الجاهلي مبطنة بمرارة التساؤل أو القلق الفلسفي، الذي يحاول أن يفسر، أو يدرك، طبيعة هذه الحياة، وما بعدها، فإن شخصية الفارس البطل بعد الإسلام قد اصطبغت بطابع ديني، إذْ أصبح الفارس يعتمد في انتصاره على قدرة الله سبحانه وتعالى، وأضحى له موقف سياسي أو عقائدي أو مذهبي، وصار للشهادة أو الموت في سبيل الله جاذبيةٌ خاصة، لأن الفروسية في واقع الحال موقف تمرد، أو حركة، أو فعل ثوري يهدف إلى إثبات الوجود الإنساني، والعيش بحرية وكرامة وامتلاء، ورفض الذل والخنوع وقيود العبودية السياسية، هذا الموقف هو في واقع الأمر دافع إلى الإحساس بالكفاح. وبهذا الإحساس يربط العربي الموقف بأصالة العمل الفني الذي لا

يخضع إلاّ للانفعال، ولا تكون تجاربه الشعرية إلاّ وليدة هذه العاطفة المتعقّلة، التي تقرن الشجاعة بعدم الخوف من النتائج، وبذلك تكامل شكل الحياة مع معناها في شعر ابن الحر، كما بيَّنا في الفصل الأول، وكما سنوضح بتفصيل أكثر في هذا الفصل.

يبدو عبيد الله بن الحر الجعفي، كما تصوره أشعاره، بطلاً منتصراً، وفارساً شجاعاً يتمتع بقدرة خلاّقة، وخبرة حربية واسعة، لأنه العقل المدبر لشؤون أصحابه، والمخطط الذكي، والمنفذ المبدع لغزواته ومعاركه، وهو الرافض أبداً، لأنه الشاعر الحازم البطل كما يقول، الذي وجد في مرحلة تاريخية عصيبة، وكان له موقف أبى من خلاله أن يكون واحداً من القطيع البشري... إنه يخاطب فتيانه المطيعين، الصابرين، يذكّرهم بأنه المدافع عنهم، والمقاتل من أجلهم، وهو المعروف ببلائه وبسالته عند الناس[1]:

فإنّيَ لم أنْكُثْ لهم عَهْدَ بَيْعَةٍ	**ولم آتِ أمراً مُحْدَثَاً أنا راهِبُهْ**
فإنّيْ لكم، مثلي يُذَبِّبُ عنكمُ	**إذا الصَّفُّ دارتْ للقِرَاع كتائبُهْ**
وإنِّيَ مِنْ قومٍ سَيُذْكَرُ فيهم	**بلائي إذا ما غصَّ بالماء شاربُهْ**
كأنَّ عُبَيْدَ الله لم يُمْسِ ليلةً	**مُوَطَّنَةً تحت الشروح[2] جنائبُهْ**
ولم يَدْعُ فتياناً كأنَّ وجوهَهُمْ	**مصابيحُ في داجٍ تَوارَتْ كواكبُهْ**
لَعَمْرُك إنّي بعد عهدي ونُصْرَتي	**لكالسَّيْفِ فُلَّتْ بعد حَدٍّ مضارِبُهْ**

يؤكد لهم –مراراً- أنه لهم، يدافع عنهم، يفتديهم، إذا ما استعد القوم للحرب وحمي وطيسها، فهو من قوم سيذكرون بأسه الشديد ما بقيت الحياة، كيف لا وهو الفارس الذي لم يبت ليلة يستمتع بالسمر والراحة، إنه المقاتل المنتصر بفتيانه الذين تطفح وجوههم بالبشر والنضارة والضياء في ليل مظلم، ثم يقسم بأنه مقيم على العهد أبداً، مناصر لأصحابه، كالسيف الصارم الذي تثلّم حدّه وتكسّرت مضاربه لكثرة الضرب به، ويبدو أنه يعاتب أصحابه في البيت الأخير.

---

[1] شعراء أمويون (٩٣، ٩٤).

[2] لعل الصواب: تحت الشروخ وهي العضاة من شجر البادية، أو الشروج، جمع شَرَج أي بنفسج الوادي، أو لعلها تحت السروج، جمع سَرْج، وهو الأقرب إلى سياق النص.

إنّ محيط الشاعر هو فتيانه، حيث يدور في فلكهم، يعيشون حياة الثـائرين بعد أن ارتضوا سلوكاً اجتماعياً، واتفقوا على ممارسة نشاط موحَّد يضمن لهـم الفكر الملتزم والحاجة المادية التي تكفيهم مؤونة السؤال وذلّه. وإذا مـا تحـدث ابن الحر عن نفسه. فإنه يعني جماعته، لأنه واحد منهم، فهو حر وابـن حـر، ورث المجد عن أجداده، قوي القلب، رابـط الجـأش، سـليم الجـسد، طـاهر النفس[١]:

أنا الحُرُّ وابنُ الحُرّ يحمل مَنْكِبي شديدُ القُصَيْرِي في العبـادِ رحيـلُ

ولا تفارق ابنَ الحرِّ مشاعرُ الإباء والشمم، في أحواله كافة، فإذا مـا أراد أحدهم أن يوجه له إهانة، فإنه يأبى ذلك، وسوف يجد في الأرض الواسعة منأى له ومهرباً، إذ ليست الأرض ملكاً لأحد، حتـى إن مـوطن الـشاعر، الكوفـة والبصرة، ليس له، فهو يمتلك إرادته ويمارس فعله الثوري في كل أرض تنبـت العزّ، وتُصان فيها الكرامة، ويجد فيها الإنسان ذاته في وقار واحترام[٢]:

فإنْ بِنْتَ عنِّي أو تُرِدْ لِيْ إهانَـةً أَجِدْ عَنْكَ في الأَرْضِ العريضةِ مَذْهَبا

فلا تَحْسَبَنَّ الأرضَ باباً سَـدَدْتَهُ عَلَـيَّ ولا المِـصْرَيْنِ أُمَّـاً ولا أبـا

وهو يتحدث عن تشرده، وتطوافه في البلاد العريـضة الواسـعة، قـصد الإغارة دون أن يكترث بالمصير، أو يهتم بما قد يقابله من أخطار وأهوال، إنـه في رحلة دائبة لا نهاية لها[٣]:

أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الإقامَةَ بالـسُّرَى ولِيْنَ الحشايا بالجِيـادِ الـضَّوامِرِ

أريني فتىً يُغْنِي غَنَائي ومَوْقِفِي إذا رَهَجَ الـوادي بِوَقْـعِ الحـوافرِ

فإذا ما استمتع الناس بطيب الإقامة، وحياة الدعة والرفاهية، فإن متعة ابـن الحر تكمن في القتال والسفر ليلاً، حيـث يمتطـي صـهوةَ جـواده الـضامر، ويخوض المعركة، يعزُّ نظيره في الاستبسال والصمود والقوة والعزيمـة، فهـو

---

[1] الاستدراك على شعر ابن الحر، مجلة المجمع العلمي العراقي، نيسان ١٩٨٠، ص (٢٩٤). والمنكب: مجتمع رأس العضد والكتف، والقصيري: أعلى الأضلاع، رحيل: قوي على الارتحال والسير والحركة، وفي أشعار اللصوص (٢٧٧/١) في البلاء، ولعله أوضح.

[2] شعراء أمويون (٩٧) في حماسة البحتري (٣٨٠) فإن يخف.

[3] شعراء أمويون (١٠٧) أغنى الرجل عنك: كفاك. السرى: السير في الليل: رهج الوادي: اكتنفه الغبار من كل جانب.

البطل الذي ورث المجد وتقديس الحرية عن آبائه وأجداده، والمقاتـل الـذي لا ينـي أو يهدأ، والفارس الذي جعل من غبار المعارك طيباً ومسكاً فوَّاحاً[١]:

أنا الحُرُّ وابنُ الحُرَّ يحمل شِـكَّتي ... طوالُ الهوادي مُشْرِفاتُ الحـوارك

فَمَنْ يَكُ أمسى الزَّعْفَـرانُ خَلُوقَـهُ ... فـإنَّ خَلُـوقي مُـسْتَثَارُ الـسَّنابك

ويبدو أن الجود والكرم، ونبل الأخلاق، وإهانة المال، وجه آخر للفـارس البطل، وعادة أو طبع[٢]:

تعوّدتُ إعطاءً لمَا مَلَكَـتْ يـدي ... وكُلُّ امرئٍ جـارٍ علـى مـا تَعَـوَّدَا

خلائِقُ ليـستْ بـالتَّخَلُّق إنّنـي ... أَرَى أكرمَ الأخلاق مـا كـان أمْجَـدا

فالعطاء خُلُق فطريٍ أصيل فيه، وليس تصنعاً، أو تكلفاً؛ لأن المجـد ذروة الأخلاق، إنّه يحمل جناناً شديداً ثابتاً، وهو دائم الترحال في سبيل المجد، قـوي على السير في المجال الذي يتحرك فيه البطل، فلا تحول الحدود والسدود بينـه وبين هدفه[٣]:

فإنْ يَعْيَ عَبَّـادٌ علـيَّ فـإنني ... أنا المرءُ لا تَعْيَا عليـه مَذَاهِبُـهْ

فبالصمود والبطولة يرفع الشاعر العالم إلى مـستوى لا حـدود لـه، لأن البطولة تطهّر الحياة وتقتحمها، فتبدل صورة العالم، حين يصبح الوجود تجسيداً للذات في مثالية شخصية، ويصبح العالم حركة فعل واقتحام. إنه يقاتل الفرسـان وحده، بعد أن قُتل أكثر أصحابه[٤]:

فإنْ تَكُ خيلي يوم تَكْرِيْتَ أَحْجَمَـتْ ... وقُتِّلَ فُرْسَاني فما كنـتُ وانِيَـا

وما كُنْـتُ وَقَّافـاً ولكـنْ مُبـارِزاً ... أقاتلهُمْ وَحْدي فُـرَادَى وثانيـا

فليس من خُلُق الفارس أن يفرّ من المعركة أو يستسلم، ولو أوقع أصـحابُ مصعب بن الزبير به، فقُتل جمع غفير من فتيانـه، إنـه يـصمد مبـارزاً، لأن

---

(1) شعراء أمويون(١١٠) ومستثار السنابك: غبار المعارك، والخَلوق: ضرب من الطّيْب أعظم أجزائه الزَّعْفَران "ورواية الفتوح" (٣٠٣) يحمل منكبي.

(2) نفسه (١٠) التخلّق: تكلف أن يظهر من خلقه خلاف ما ينطوي عليه، والخلائق جمع خليقة، وهي الطبيعة التي يخلق المرء بها.

(3) حماسة البحتري(١٢١) أعيا عليه الأمر: أعجزه فلم يهتد لوجهه، مذاهبه: جمع مذهب وهو الطريقة.

(4) الحماسة الشجرية (٣١٦/٢) شعراء أمويون (١١٨)، وقاف: أي لا يمضي رأياً، وَوَقّف الجيش: وقفوا واحداً بعد واحد.

الصمود دفاع وجزء من سياق النصر والتفوق، وإلغاء للخوف، وتأكيد للقوة التي يتمتع بها الفارس، فهو لا يفخر بها، لكنه يفخر بطريقة استخدامها، دون تبجّح، فوصفه هنا أمر واقعي، إذا بارز فارساً واحداً أو أكثر فالمجابهة متكافئة.. وهكذا ظلت شخصية الفارس أعلى من الفروسية، إذ هو سيد الحرب، والفرسان يهربون منه، كما تلوذ الحمامة من الصقر الجارح[١]:

يَلُوذونَ مِنّي رَهْبَةً ومَخَافَةً … لواذاً كما لاذَ الحمائمُ مِنْ صَقْرِ

وفروسية ابن الحر هي فروسية الرفض، أو اللاانتماء، تستند إلى إحساس طاغٍ بأنها قادرة على هدم كل ماهو قائم، فكيف إذا تعرض البطل للضيم والخَسْفِ والذّل[٢]:

ومازِلْتُ أنفي الخَسْفَ عَنّي وأحتمي … وبعضُهُمُ إنْ سِيْمَ بالخَسْفِ مُلْبِسُ

إنه يأبى الضيم، ويرفض المهانة إذا ما استمرأ غيره الهوان وتعايش معه. ولا ترتبط البطولة بالأحرار وحدهم، فحتى إن كانت أُمُّهُ جاريةً، أو إحدى سبايا الحرب، فإنه سوف ينال بسيفه أكابر القوم من أولاد النساء الصرائح[٣]:

فإنْ تَكُ أُمِّي مِنْ نِسَاءٍ أصابَها … سِباءُ القَنا والمُرْهَفات الصَّفَائحِ

فَتَبّاً لفضلِ الحُرّ إنْ لم أَنَلْ به … كرائمَ أولادِ النّساءِ الصَّرائح

فإذا كان غبار المعارك طيبه، وإذا كان فرسانه من ذوي الأحساب الكريمة، والوجوه المضيئة كمصابيح الدجى، أباة، فلماذا يأبه بتهديد ابن الزبير؟! إنه يستخف به ويرد عليه بتهديد ووعيد، فسوف يغزوه، ويخزيه[٤]:

أتاني وَعِيْدُ ابْنِ الزُّبيرِ فلم أُرَعْ … وما مِثْلُ قلبي بالوَعِيْدِ يُرَوَّعُ

فلا تَرْمِيَنِّي بالوعيد فإنني … سأتركُ ما تهوى وانْفُكَ أجدَع

فإن أنا لم أُسْعِطْكَ غيظاً بغارَةٍ … وأَصْدَعُ ما قد كان بالأمْسِ يُرْفَعُ

---

(1) شعراء أمويون (١٠٥) لاذ بالشيء لواذاً ولياذاً: لجأ إليه واستتر به وتحصّن.

(2) الأشباه والنظائر (١٩٦/١) شعراء أمويون (١٠٧)، الخسف: الهوان، والملبس: المستمتع.

(3) ذيل الأمالي والنوادر (٢١٧)، شعراء(٩٩) القنا: اسم الجنس الجمعي للقناة وهي الرمح الأجوف، رَهَفَ سيفُه: رَقَّقَه وحدده، صفح السيف: عرضه (ج) صِفاح وأصفاح، يقال: ضربه بالسيف مصفّحاً: بعرضه لا بحدّه والصفائح: السيوف العِراض.

(4) شعراء أمويون (١٠٧) أسعطه بالرمح: أوجره، وأسعطتُه الدواء: سقيته، قلب مشَيَّع: شجاع، يقال: قد شُيِّعَ قلبه بما يركب كل هول.

فلا وَضَعَتْ عندي حَصَانٌ قِنَاعَهـا ولا قـادني للنـاس قَلْـبٌ مُـشَيَّعُ
ستعلم إنْ مالتْ بِيَ الـريحُ مَيْلَـةً عليك غداً –أنيى أوِ إيَّـاكَ أجْـزَعُ

فلم يعوده قلبه الخوف، وهو لن ينصاع للتهديد والوعيد، بل سـيرد علـى الوعيد بقهر مصعب، وزرع الغيظ في قلبه، بغارة لا تبقي ولا تـذر، وإلا فلـن يكون ابن الحر موضع ثقةٍ وفخرٍ وأمان للنساء، ولا طيّب السمعة عند النـاس، والفيصل في أيّ الفريقين سيغلب هو ميدان المعركة، ففيها سيعلم ابن الزبير مَنْ منهما الخائف الخوَّار، وهو بهذه الأبيات يستدرجه لمعركة لعلـه يظفـر بـه، ويقتص منه.

وقد أقبل ابن الحر على أصحابه، فقال: تهيؤوا الآن، إني عزمت أن أسـير بكم إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان، أسأله المعونة على مصعب بن الزبير، ثم نادى في أصحابه، وترحل نحو الشام، وأنشأ يقول[١]:

وبالشام إخواني وجُلُّ عشيرتي وقد جُعِلَتْ نفـسي إليـك تَطَّلَـعُ

وهكذا بدت لنا شخصية ابن الحر، واضحة المعالم، بائنة القـسمات، إنهـا شخصية الفارس الذي لا يسلّم بالهزيمة، والبطل المنتصر الـذي يمتلـك قـدرة فائقة، وجَلَداً في المعركة، وفكراً مدبّراً، وعقلاً منفذاً، وجماعة مخلصة مطيعـة، سلاحه الرفض والسخرية من الأعداء، وحياته قائمة علـى الحـرب، مـتلاف، كريم، طيب السمعة، وموئل العاجزين والنساء، كانت جراحات المعارك وشـم البطولة في جسده، وأسنة الرماح أوسمة النصر يعلّقهـا علـى صـدره الـذي يحتضن قلباً كبيراً، وجناناً ثابتاً، وإرادة واعية تعلم ما تريد،.. إلا أن مقومـات هذه الشخصية النادرة في تراثنا الحربي الشعري تبرز أكثر في حديثنا عن:

جرأته وشجاعته:

يعبر ابن الحر في شعره عن معاني التضحية، علاوة على جرأتـه التـي تبدو في موقفه من علي كرم الله وجهه، وخلافه مع معاوية[٢]، يضاف إلى ذلك ما ذكره ابن خلدون[٣] من أن ابن الحر لم يعترض للقتل ولا للمال، إنمـا كـان يأخذ مال السلطان متى لقيه فيأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، ويـرد البـاقي

---

[1] الاستدراك (٣٠٠) كتاب الفتوح (٢٣١/٦).
[2] الطبري (١٢٩/٦) وفيه حديث طويل عن علاقة الشاعر برجالات عصره.
[3] المقدمة (١٤٩/٣).

ويكتب لصاحب المال بما أخذه. فهذه الجرأة موقف يرضي سلوكاً اجتماعياً يضمن البقاء والاستمرار والصمود في معارك العزّة، لأنه لا يهاب الموت في سبيل الهدف الذي تمرد من أجله، فقد ذكر ابن الأثير[١] أنه عندما خرج ابن الحر على طاعة مصعب وهاجم بعض القرى، وأتى تكريت، أقام فيها يجبي الخراج، فبعث إليه مصعب جيشاً مؤلفاً من ألف مقاتل، فقال له رجل من أصحابه: قد أتاك جمع كثير فلا تقاتلهم، فأجابه ابن الحر:

يُخَوِّفُنِي بالقَتْلِ قومي وإنَّما	**أموتُ إذا جاء الكتابُ المؤجَّلُ**
لعلَّ القَنَا تُدْنِي بأطرافها الغِنَى	**فنحيا كِرامَاً أو نَكُرُّ فَنُقْتَلُ**
ألم تَرَ أنَّ الفَقْرَ يُزْرِي بأهْلِهِ	**وأنَّ الغنى فيه العُلا والتَّجَمُّلُ**
إذا كنتَ ذا رُمْحٍ وسَيْفٍ مُصَمَّمٍ	**على سابحٍ أدناكَ مما تُؤَمِّلُ**
وإنَّك إلاّ لا تَرْكَبِ الهَوْلَ لا تَنَلْ	**من المال ما يكفي الصديقَ ويَفْضُلُ**
إذا القِرْنُ لاقاني وَمَلَّ حياتَه	**فلستُ أُبالي: أيُّنَا ماتَ أولُ**

فهو يرفض حياة الاستسلام والخمول، إذ لا سبيل إلى الحياة الكريمة مع الظلم، ولا وسيلة إلى الرفعة والمكانة والغنى إلا باستخدام القوة والاستخفاف بالحياة بغية تحقيق الهدف، فكل نفس ذائقة الموت، وكل ابن أنثى له أجل محتوم ومعلوم، وما دام الأمر كذلك فإن العيش في ظل الفقر مذلة وهوان، وإن الغنى فيه السمو والرّفعة، ولن يحقق الغنى وينتزعه إلا مَنْ كان صاحب رمح وسيف وفَرَسٍ سريع العدو، فهذا الثالوث يحقق الهدف، أما المال فلا يأتي إلا بالفتكة البكر، لكن هذا المال لن يكون غاية، وإنما هو وسيلة تكفي الأهل والصديق والفقراء. ثم يختم الأبيات بالحديث عن شجاعته، فإذا ما لاقاه الخصم القوي فإن الشاعر لا يأبه بالموت، أو أيهما يقضي أولاً، لأن الموت في نظره حق، وهو لا يبالي إن حان موته حتى لو لم يبق أحد غيره في ميدان المعركة. قال يحثّ أصحابه على القتال ويدعوهم إلى الثبات[٢]:

يا لَكَ يوماً قَلَّ فيه ثقتي	**وغابَ عني معشري وأسرتي**
ومَذْحِجٌ طُرّاً وجُلُّ إخوتي	**وصُحْبَتي الحامونَ لي في كربتي**

---

[1] الكامل في التاريخ (٤/٢٩٢)، شعراء أمويون (١١٠، ١١١) القرن: الرجل المكافئ، الند.

[2] الاستدراك (٣٠٠) والفتوح (٦/٣٥٢-٣٥٣) أسعر الحرب: أوقدها.

يا قَيْسَ عَيْلان أصبتمْ فرصتي ... ومـــا أُبـــالي إنْ أتـــتْ منيّتـــي

ثم حمل على خصومه في أصحابه، على قلّتهم، فقاتل ســاعة فقُتــل مــن أصحابه ثلاثون رجلاً ونيّف؛ وبقي في بضعة عشر رجلاً، فقاتــل حتـــى بقـــي خمسة فجعل يرتجز، ويقول:

لو أنّ لي مِنْ شِيعَتي رجــالا ... مَــــسَاعِراً أعـــــرفهمْ أبطـــــالا

لأحسنوا من دونـــيَ القِتَـــالا ... ولم يهابوا فـــي الـــوَغَى الآجـــالا

قال: وقتل أصحابه الخمسة، فبقي عبيد الله بن الحر يقاتل وحده.

ففي الأبيات تختلط مشاعر الظفر بالحزن، بالصبر، بالحنين إلـــى الأهــل والوطن، باحتقار الموت، والتأسي بالشجاعة والثقة بالنفس، بالأمل فـــي نـــصرة الأصحاب الذين لا يخافون الموت.

إنه يلبي دعوة القوم لنجدتهم، ويكشف عنهم الغَمَّ، ويكـــسب لهـــم الحمـــد والمغانم، ويطفئ نار الحقد والثأر والكراهية، فقد دعا بفرسه، وامتشق حـــسامه، وتقلد رمحه، ليجابه قاطع الطريق الذي روَّع الناس في الأنبار، فقال[1]:

وأبيضَ قد نَبَّهْتُـــهُ بعـــد هَجْعَـــةٍ ... وقد لبس الليلُ القميصَ الأرَنْـــدَجَا

وَجَدْتُ عليـــه مَغْرَمَـــاً فَقَبَـــضْتُه ... وفرَّجْتُ ما يُرْجـــى بـــه أن يُفَرَّجـــا

وكنتُ إذا قومي دَعَـــوْنِي لنَجْـــدَةٍ ... شَدَدْتُ نِطاقي حين أُدْعَى وأســـرجا

فأكشفُ غُمَّاها وأكـــسبُ مغنمـــاً ... وأُطفي الذي قد كان فيها مُؤَجَّجَـــا

فهو حانٍ على صديقه أو فرسه، يوقظه في ظلمة الليـــل، فيجـــده مولعـــاً بالحرب لا يصبر على مفارقتها، وبذلك وجد الشاعر بهذه الاستجابة مـــا يفـــرِّج همه، وهذا ديدن الشجعان الذين يلبون دعـــوة القـــوم لكـــسب الحمـــد والفـــرح والراحة.

---

(1) الاستدراك (٢٩٩-٣٠٠) وأبيض: ربما يكون صفة لمقاتل أو للفرس، الأرندج: جلد أسود تعمل منه الأحذية. المُغْرَم: المولع بالشيء لا يصبر على مفارقته، أو المثقل بالدين، والنطاق: حزام يشدّ به الوسط. وقد فسر جامع أشعار اللصوص وأخبارهم الأرندج بالأسود والأبيض: السيف (م١/٢٥٨)، والأبيات في فتوح البلدان (٦/٤٣٩).

والشاعر مستجيب للنداء، في كل حال وظرف، حتى لو كان يوم الحرب طويلاً لا نهاية له، فهو صامد سواء أكان حُرًّا طليقاً، أمْ سجيناً في سجن مصعب يضيّق عليه ذلك السجَّان الحاقد(١):

فلم أَرَ يوماً مثْلَ يَوْم شهدتُه ... أبَتْ شمسُه مع غيمه أَنْ تَغَيَّبا

ولعل خبره مع الغُدَاف(٢)، وهو أحد فُتّاك الإسلام، يؤكد هذه البطولة، وتلك الجرأة. فقد كان هذا الحبشي يقطع الطريق فيما بين عانة والأنبار، ويدخل الأنبار نهاراً ولا يردعه أحد خوفاً منه، وقد وصفه الجاحظ(٣) بأنه لم يكن في الأرض أشد منه، كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحُماة والخفراء، وكان هذا اللص إذا أعجبته امرأة أخذ زوجها فكتَّفه ثم قام فقضى حاجته منها، وزوجها ينظر إليها، فأدركت عبيد الله الغيرة والأنفة فمضى إليه وحده، فلما رآه عرفه بالنعت فسايره ابن الحر، فقال له من أين أقبلتَ يا صاحبَ الفَرَس، قال: من الأنبار، قال: فإنه بلغني أن ابن الحر نزلها فما تراه يريد؟ قال: إيَّاك يريد، أنا ابن الحر، فخُذْ حِذْرَك أيها الكلب، ثم حمل عليه فطعنه فصرعه، ثم نزل فضرب رجله فأبانها، فأخذ الأسود رجله فرمى بها ابن الحر، فمشى إليه ابن الحر فقتله وأخذ فرسه، وجعل ابن الحر يقول(٤):

إني رأيتُ بِوَادٍ مُقْفِرٍ رَجُلاً ... مثلَ الهِزَبْرِ إذا ما ساوَرَ البطلا

ضخمُ الفريسة لو أبصرتَ قُمَّتَهُ ... وَسْطَ الرجالِ إذاً شَبَّهْتَهُ جَمَلا

سايرتُه ساعةً ما بي مخافَتُه ... إلا التلفُّتُ حولي هل أرى دَغَلا

دَهْدَهْتُهُ بين أنهارٍ وأودِيَةٍ ... لا يعلم الناسُ غيري عِلْمَ ما فَعَلا

يُدْعَى الغُدافُ، وقد مالت عِلاوته ... إنّ الغُدَافَ وربي وافَقَ الأجلا

أنْشَا يسائلني عنه وأطعنه ... فخرَّ يَهْوِي على الخيشوم مُنْجَدِلا

فهو في الأبيات يحدد المكان الذي فيه لاقى خصمه الذي يشبهه بالأسد الجسور الذي يصارع البطل، إنه ضخم كالجمل، سايره الشاعر دون خوف منه

---

(1) الاستدراك (٢٩٦).
(2) الخبر والأبيات في المحبِّر (٢٣٠-٢٣٢) وشعراء أمويون (١١٣-١١٤).
(3) رسائل الجاحظ (١/١٩٣).
(4) شعراء أمويون (١١٤): الدَّغَل، القانص. دهدهدته: دحرجته، قلبتُ بعضه على بعض.

كي يستطيع النيل منه، ثم يتمكن منه بعد أن حانت منيته، إذ طعنه عدة طعنات خرّ إثرها مقتولاً ذليلاً. وتسود الأبيات عاطفة البطل الواثق من نفسه، الأبي، المترفّع عن الدنايا، والذي لا يقتل إلا المكافئ له، ولو كان في حصن منيع. إنه يترك خلفه ما تأكله الثعالب والطيور من لحوم أعدائه القتلى[١]:

فكم من صريع قد تركتُ بمعزلٍ عُكُوفَاً عليه طَيْرُهُ وثَعالبُهْ

وحِصْنٍ منيعٍ قد صَبَحْتُ بغارةٍ وأهل نَعيم يَضْرِبُ الطَّبْلَ لاعبُهْ

وهكذا تبدو مظاهر "البطولة الواقعية" كما يصفها شوقي ضيف[٢]، حيث يرتفع فيها صاحبها عن الأشخاص العاديين من حوله، بقوته وبسالته وإقدامه، وشجاعته وجرأته وتغلّبه على أقرانه، وهو منهم من ذات أنفسهم، لا من سلالة الآلهة كما عند اليونان، ولذلك تفجر بطولته من وجوده الإنساني البشري، فهي بطولة إنسانية تُستمدّ من الواقع وحقائقه، لا من الخيال وخوارقه، وهي بطولة تستند إلى قوة الجسد والبأس الشديد. ولكن أليس لهذه البطولة بواعث ودوافع عند عبيد الله بن الحر الجعفي؟

دوافع بطولة ابن الحر:

إن البطل رمز تجسدت فيه الآمال، وتحققت في نهجه الرغبات، وتمثلت في أعماقه مظاهر البطولة المحببة، فأصبح صورة متمكنة في كل نفس، ورمزاً يتوق إليه الآخرون، كما يقول نوري القيسي[٣]. ولا نشك في أن العامل السياسي الذي وقفنا عليه، والمتمثل في الرفض لكل ما هو قائم، إلى جانب العامل الاقتصادي، وخاصة تأثير الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري الذي جابه التفاوت في حياة الناس بين الحكم وبطانته وفئات الشعب الكادحة، الأمر الذي حرك في الناس المشاعر، ومن ثم المواقف نحو السلطة الحاكمة، ففي ثورة أبي ذَرّ على الظلم تبشير بأخلاق تتجاوز الفضيلة إلى ما هو أشمل منها وأعلى[٤]. صحيح أن ابن الحر لم يذكر أبا ذَرٍّ صراحة، إلا أن أفكاره كانت واضحة في نهج ابن الحر وشعره، فهو يدعو إلى **العدالة** في توزيع الثروة، **والمساواة** في الحقوق، بل يقوم بتحقيقها **بالفعل الثوري**، وبذلك رفض الراهن، وتطلع إلى

(1) شعراء أمويون (٩٤).
(2) البطولة في الشعر العربي (١٣).
(3) شعراء أمويون (٦٧).
(4) الثابت والمتحول –أدونيس (١/١٧٧).

ماهو أفضل، وأشد اكتمالاً وكمالاً، حتى ليُعدّ سلوك ابـن الحـر قاعـدة نظـام سياسي يوحد بين النظر والممارسة العملية.

فالدهر يومان: إما أن يكون المرء مقهوراً مشرداً، غريباً، مسلوب الحـق، وإما أن يكون في الثاني ملكاً متوجاً يملك كل شيء[1]:

أرى الدَّهر لي يومين: يوماً مطرَّداً شريداً، ويوماً في الملوك مُتَوَّجا

ويكرر هذا المعنى، بتعبير شعري آخر، حيث يقول[2]:

ويـومَ لَقِيْنَـا الخَثْعَمِـيَّ وخَيْلَـهُ صَبَرْنا وجالدْنا على نهر صَرْصَرا

ويوماً تَراني في رَخَـاءٍ وغِبْطَـةٍ ويوماً تراني شاحب اللون أغبرا

هكذا الحياة، يوم لك ويوم عليك، فعندما لقي عدوه وعدته، صمد وصـابر في المعركة، لكن الحال لا يدوم فهو يعيش في دعة وغبطة وسعادة، ثـم يلـي ذلك يوم يكون فيه شقياً محزوناً مهموماً.. فالنصر وجه آخر للهزيمة وبالعكس، انظر إليه يذكر فعله بالمختار الثقفي وجيشه في يوم حولايا[3].

ويوم بِحَوْلايا فَضَضْتُ جُموعَهم وأفْنَيْتُ ذاكَ الجيشَ بالقَتْل والأسْـر

فَقَتَّلْتُهُمْ حتـى شَـفَيْتُ بقـتلهم حرارةَ نَفْسٍ لا تُذَلُّ علـى القَسْرِ

ومن شيعةِ المختارِ قَبْلُ شَـفَيْتُها بِضَرْبٍ على هاماتِهم مُبْطِلِ السّحْرِ

إنه فرق جموع الجيش في (حولايا) بالقتل والأسر، فشفا نفسه التي ترفض الذل والقهر والعَسْف، وكانت جولاته من قبل قـد أبطلـت شـعوذة المختـار وسحره. وهنا يقرر الشاعر أن دوافع بطولته تهدف إلى **تحرير الإنسان** بوساطة القتال الذي هو حاجة يفرضها قدر الحياة للتسلح في وجه ماهو واقع، فـالحرب تحث السير نحو الموت –وهو قدر مكتوب- لكنه يؤمن أنه بـذلك يفـتح أفـق المستقبل وأبواب الحياة، إنه يتحرك، ويحيا بالحرب وبنتائجهـا، ومـا يعقبهـا، فالبطل هو ذلك الرجل المخلص لذاته أولاً، ومن لا يخلص لذاته لا يـستطيع أن

---

[1] شعراء أمويون (٩٨).

[2] نفسه (١٠٤)، صرصر، نهر يصب في دجلة تجري فيه السفن، وعليه مدينة بينها وبين بغداد سبعة أميال (الروض المعطار ٣٥٧). وفي معجم البلدان: قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا والسفلى، وهما على ضفة نهر عيسى.

[3] نفسه (١٠٦).

يخلص لشيء آخر، ومن ثم كانت أهمية هذا **الإخلاص** الشديد للذات أساساً للعلاقة الحميمة مع فتيانه أو أصدقائه.

إنه على يقين أن الغدر في زمانه هو السائد، فأهل النصح مبعدون، أما أهل الغش والخداع فهم المقرَّبون والمقدمون، والمطاعون[١]:

ألا رُبَّ ذي نُصْحٍ يُبَاعَدُ عنكمُ   وغِشٍّ رأيناهُ مُطاعاً مُقَرَّبا

وإنه سليل قوم يأبون الضيم، ويحمون الدار والعرض، ويرفضون الهوان، وذلك ميراث الأجداد أوصوا به الأبناء، يقول ابن الحر[٢]:

لم يَبْقَ شيءٌ يُسَامُهُ أَحَدٌ   إلا وقد ساماهُ إخوتُنا

فوجدونا نحمي الذِّمَارَ ونأ   بَى الضَّيْمَ أن تستباح حرمتنا

بذاك أوصى مِنْ قبلُ والدُنا   وتلك أيضاً غداً وصيَّتُنا

فهذا المجد المتوارث يدفع إلى **تحقيق العدالة** -على الصعيد العملي- ويحضُّ على **التوزيع العادل للثروة**، ويدعو إلى التمرّد على الدولة، وهذا مصداق حديثه لأصحابه: "إنَّ لكم شركاء بالكوفة في هذا المال قد استوجبوه"[٣] فإذا ما غنم وجماعته مغنماً، فإنه يقسمه بالعدل والتساوي في الحظوظ التي تفرض لكل منهم مما كانوا يستولون عليه من المال والأسلاب، يقول مفتخراً بنفسه وحسبه، وفتيانه الأشداد، وسلاحه الذي تحمله الخيل الكريمة[٤]:

أقول لِفِتْيانٍ مساعِرَ أَسْرِجُوا   بأموالكم أو تَهْلِكُوا في الهوالك

أنا الحُرُّ وابنُ الحُرِّ يحمل شِكَّتي   طَوالُ الهوادي مُشرفات الحوانك

أقول لهم كِيْلُوا بِكُمَّةِ بَعْضِكُمْ   ولا تجعلوني في النَّدَى كابنِ مالك

فالقسمة العادلة مذهبهم، وهو لا يؤثر نفسه على فتيانه، كما فعل ابن مالك (إبراهيم بن الأشتر) قائد جيش المختار الثقفي، الذي كان شحيحاً يخص نفسه

---

(1) شعراء أمويون (٩٧) وحماسة البحتري (٢٧٩).

(2) شعراء أمويون (١١٧) سامه في ماله، خلّى ليس له يد في أمر، وسوّمت غلامي: خلّيته وما يريد. المضيم: مصدر الضيم: الظلم، والتغيير في رواية الألفاظ من أشعار اللصوص (٢٨٥/١).

(3) الطبري (١٢٨/٦).

(4) شعراء أمويون (١١٠) وفي الحماسة الشجرية (أسرحوا) وهو أصوب، الشّكَة: السلاح، هوادي البقر: متقدماتها، وضرب هاديه: عنقه وأقبلت هوادي الخيل –الحوانك: جمع حانك وحنك: موضع الرسن في فم الفرس، وطَوال الخيل: جمع طَوْل: القدرة والفضل، والكمة: القلنسوة المدورة.

بالغنائم، فابن الحر وجماعته يكيلون المغانم بالقلنسوة، حتى يحظى كل منهم بنصيبه المساوي لنصيب أخيه.

وهؤلاء الفتيان وقائدهم كأنهم نفس واحدة، لأنهم فرسان لا أحقاد بينهم ولا ضغائن ولا كذب، فهم فتيان صدق، يواسون من يحتاج إلى المواساة، كرماء، لا يبخلون على السائل. إنه يهدد ابن الزبير بخيل عوابس، شوازب تحمل السلاح والعتاد[(١)]:

بفتيانِ صِدْقٍ لا ضغائن بينهم   يواسون مَنْ أَقْوَى ويُعْطون مَنْ سأل

كذلك فإن الشاعر وصحبه يأبون الذل والظلم، ويتمتعون بالحِلْمِ ورجاحة الرأي، فكم من سيد غِطْريف سلبوه ماله بقوة السيف، حتى أصبح ذا عسر، هذا الأمر ديدنهم، بل هو إرث بينهم[(٢)]:

وقدماً أبينا أن يقرَّ ظِلامَهُ   وقِدْماً وَثُقْنَا كُلَّ فَتْقٍ من الأمر

وكم مِنْ أبيٍّ قد سلبناه وَفْرَهُ   بأسيافنا حتى أقام على العُسْرْ

وهكذا كان يرى وجه البطولة المنتصرة يتلألأ من وجوه أصحابه الذين هم كمصابيح الدجى غرر، شم الأنوف، من الأبطال الفرسان المطيعين، المحبين، الصامدين في معارك الشاعر وغزواته وأيامه، وما أكثرها..

معاركه وأيامه:

كان لمسرح البطولة نصيب وافر فيما بقي من شعر ابن الحر، فأرض المعركة ساحة حربية يتصايح الأبطال في كل جانب منها، وتُشهر السيوف، وتلمع الرماح، وتصوّب النبال، وتدق الأعناق، وتسيل الدماء، والوحوش والطيور تتخاطف الأشلاء[(٣)]. ولن نعيد القول عن شجاعة ابن الحر وبسالته، لكن يكفي أن نذكر هنا أن جوهر البطولة والفروسية عامة يبرز في حديث الشاعر عن معاركه وأيامه، سواء أكان الحديث متعلقاً بالواقع الحربي الذي يقوم على الاستبسال في القتال؟ أم بالواقع النفسي الذي يقوم على احتمال

---

(1) الاستدراك (٢٩٨) أقوى القوم: فني زادهم وباتوا على جوع شديد.

(2) نفسه (٢٩٨) الفتق: الشق، والخلاف بين الجماعة، وتصدّع الكلمة، الوفر: كثرة الملك والمال. وظِلامه: بكسر الظاء، الظلم، والظُّلامة: ما تُظْلَمُه، ومظالمته أي ظلمه. أما محقق أشعار اللصوص فقد أورد البيت الأول هكذا: وقِدْماً أبينا أن تُقِرّ ظُلامَةً وقِدْماً رَتَقْناً كلّ فَتْقٍ من الأمر / ولعل هذه الرواية أصح.

(3) البطولة في الشعر العربي. د.شوقي ضيف (١٧).

الشدائد والحِلْم والحزم والعزّة والأنفة، أو الخلقي الذي يقوم على صيانة الشرف، والحرص على الكرم والوفاء بالعهد، وحماية الجار، وبذلك تعانقت من قديم بطولة السيف وبطولة النفس والخلق، والطموح إلى المثل الرفيعة[١].

فإلى جانب شعره الذي وصف فيه هذه الجزئية، والذي يبدو وثيقة مهمة لأن شعره يتمتع بالصدق الواقعي، تذكر كتب التاريخ أن ابن الحر كان من أصحاب النخيلة وشهد القادسية وجلولاء، ونهاوند وصفّين، وكان مع معاوية[٢]. ويذكر صاحب الخزانة أن عبيد الله بن الحر كان شجاعاً لا يعطي الأمراء طاعة، ثم صار مع معاوية، فكان يكرمه، وكان ينتاب عبيدَ الله أصحابٌ له فبلغ ذلك معاوية، فبعث إليه، فدعاه، فلما دخل عليه قال: يابن الحر، ما هذه الجماعة التي بلغني أنها ببابك؟ قال: أولئك بطانتي أقيهم، وأتقي بهم إن ناب جور أمير...

ففي غزواته ومعاركه التي شنها على المختار الثقفي وجيشه، نلفي الشاعر يتغنى بانتصاراته، ويسخر من الثقفي، فيصفه بأنه الكذاب[٣].

لقد زعم الكذّابُ أنِّي وصُحبتي (بمَسْكَنَ) قد أعْيَتْ عليَّ مذاهبُ

فكيف وتحتي أعوجيٌّ وصحبتي على كُلّ صِهْمِيْم الثَّمِيْلَةِ شازبُ

إذا ما غَشِيْنا بلدةً قَرَّبَتْ لنا طوالٌ مُتُونٌ مُشرفاتٌ حواجبُ

فالثقفي كاذب في زعمه أن السُّبل قد سُدَّت في وجه الشاعر وصحبه في موقعة (مسكن)، إذ كيف يكون ذلك، وتحته فرس قوي، ومعه صحب لا ينثنون عما يريدون، أشداء، بل هم عصمة للناس وموئل، فبالسلاح والسواعد القوية يقتحمون ما يستعصي عليهم من البلدان.. وفي القصيدة التالية، التي بلغت ستةً وعشرين بيتاً، تبدو بوضوح أهم المعاني التي تتناول وصف الحدث، وما جرى إبّان المعركة، والفخر بالشجاعة والنصر المؤزر. ولعل مناسبة القصيدة، تلقي أضواء على الحدث نفسه، فقد كتب المختار الثقفي إلى ابن الحر، وكان بناحية الجبل يتطرف ويُغير: إنما خرجتَ غضباً للحسين، ونحن ممن غضب له، وقد تجردنا لنطلب بثأره، فأعنّا على ذلك، فلم يجبه عبيد الله إلى ذلك، فركب

---

(1) نفسه (٥).

(2) انظر الطبري (١٣٢/٦) خزانة الأدب (٢٩٧/١).

(3) شعراء أمويون (٩٦) مسكن: اسم مكان، الأعوجي، صفة للخيل، الصهميم: العسر الذي لا يثني عما يريد وهو الكريم من الخيل، الشازب، الضامر، وقد وردت بالراء المهملة وهو خطأ.

المختار إلى داره بالكوفة فهدمها، وأمر بامرأته أم سلمة بنـــة عمـــر الجعفـــي، فحبست في سجن الكوفة، وانتهب جميع ما كان في منزله؛ وكان الـــذي تـــولى ذلك عمرو بن سعيد بن قيس الهمداني؛ وبلغ ذلك ابن الحر، فقصد إلى ضـــيعة لعمرو بن سعيد بالماهَين، فأغار عليها، واستاق مواشيها، وأحرق زرعهـــا، ثـــم اختار من أبطال أصحابه مائة فارس، وخلَّف بقية أصحابِه بالماهَيْن، وسار نحو الكوفة حتى انتهى إلى جسرها ليلاً، فأمر بقوَّام الجسر فكتفوا، ووكلَ بهم رجـــلاً من أصحابه، ثم عبر ودخل الكوفة، حتى انتهوا إلى السجن فكسروه، فخرج كل من فيه، وحمل ابن الحر أمَّ سلمة على فرس، ووَكَلَ بها أربعـــين رجـــلاً، ثـــم مضى، وبلغ الخبر المختار فأرسل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجـــل، ومـــن اتجاهات عدة، فلم يزل ابن الحر يكـــشفهم، ويمـــضي والحجـــارة تأخـــذه هـــو وأصحابه من سطوح الكوفة، حتى عبر الجسر، وقد قتل من أصحاب المختـــار مائة رجل، ولم يقتل من أصحاب الجعفي إلا أربعة نفر، ثـــم لحـــق بأصـــحابه بالماهَيْن[1] يقول ابن الحر[2]:

وما تَرَكَ الكَـــذَّابُ مـــن جُـــلِّ مالِنـــا ... ولا الزُّرْقُ من هَمْدَان غيرَ شـــريدِ

أفي الحَقّ أن تَنْهب ضياعي شاعر[3] ... وتأمَنَ عندي ضيعةُ ابـــنِ ســـعيد

ألـــم تعلمـــي يـــا أُمَّ توبـــةَ أنَّنـــي ... على حَـــدَثانِ الـــدهر غيـــرُ بليـــد

أشـــدُّ حيـــازيمي لكُـــلِّ كريهـــةٍ ... وإنِّي على مـــا نـــابَ جِـــدُّ جلِيْـــد

فـــإن لـــم أُصَـــبّحْ شـــاكراً بكتيبـــةٍ ... فَعَالجْـــتُ بـــالكفَّين غُـــلَّ حديـــد

هُمُ هـــدموا داري وقـــادُوا حليلتـــي ... إلى سِجْنِهِم والمسلمونَ شُـــهودي

وهم أعجلوهـــا أن تَـــشُدَّ خِمارَهـــا ... فيا عَجَبَاً هَلِ الزمـــانُ مُقيْـــدِي[4]

فما أنا بابن الحُـــرُّ إنْ لـــم أرُعْهُـــمُ ... بِخَيْـــلٍ تُعَـــادي بالكُمـــاةِ أُســـودِ

---

[1] الأخبار الطوال (٢٩٧-٢٩٨).

[2] شعراء أمويون (١٠٢-١٠٤).

[3] ثمة شك في صحة صدر البيت ولعله، .. ضياعي بشاكر، والحيزوم: الصدر أو وسطه، يقال اشدُدْ للأمر حيازيمك: أي وطن نفسك عليه. جليد: صابر. الغُلّ: طوق من حديد يُجعل في عنق الأسير أو في يديه. وفي أشعار اللصوص (٢٦٢/١): أفي الحق أن يجتاح مالي كلّه، ولعله الأصح.

[4] لعل الصواب: فيا عجباً عَلَّ الزمانَ مقيدي.

وما جَبُنَتْ خيلي ولكنْ حَمَلتُها على جَحْفَلٍ ذي عُدَّةٍ وعَديدِ
وقد عَلِمَتْ خيلي بساباطَ أنني إذا حِيْلَ دونَ الطَّعْنِ غيرُ عنودِ[1]

أكرُّ وراء المُحْجِرين[2] وأدَّعي مَوَاريْثَ آباءٍ لنا وجُدودِ
إذا فَرَغَتْ أسيافُنا من كتيبةٍ نَبَذْنَا بأخرى في الصَّبَاح رَكُودِ[3]

وإن خرجوا من غَمْرَةٍ رَدَّها لهم دُعايَ وتحريضي لَهُمْ ونَشيدي
أقولُ لهم تِمُّوا فدىً والدي لكم ومالي جميعاً طارفي وتَلِيْدي
أُفَدّيهمُ بالوالدين وفيهُمُ نوافذُ طَعْنٍ مِثْلُ حَرٍّ وَقُودِ
ترى النَّضْخَ[4] من وَقْعِ الأسِنّةِ بينهم جَسيداً بلبّاتٍ[5] لهم وخُدود
وغيَّرَ ألوانَ الأسنة بَيْنَنا بأحْمَرَ من صَوْبِ العُروق فَصِيد[6]
فدارتْ رَحَانا واستدارت رَحاهُمُ وكان جِلادٌ دونَ كُلّ وَعيد
وأَبْسَلَ[7] أهلُ المأقطين نفوسَهم مُضارَبَةً إذْ طار كُلُّ شَرود[8]
دَعَوْني إلى مكروهها فأَجَبْتُهُم وما أنا إذْ يَدعونَني ببعيد
أُقَدّمُ مُهْرِي في الوَغَى ثم أنتحي على قَرَبوس السَّرْج غيرَ صدود
إذاما اتّقوني بالسيوف غَشَيْتُهُمْ بنفْسٍ لما تخشى النفوسُ وَرُودِ
فما رِمْتُ حتى صُرّعَ القومُ نَشْوَةً سُكارى وما ذاقوا شرابَ حُدود
ولكنَّ وَقْعَ المَشْرفِيّةِ بينهم لتَجْهيْز مَنْ يَدْنُو لدار خُلود

---

[1] العنود: شديد العناد.
[2] المُحْجر: الذي يحيط بالأسير هنا.
[3] ركودَ: ساكنة وثابتة. ومعنى نبذنا أخرى: أتيح لنا لقاؤها.
[4] اللّبات: جمع لبّة، وهي موضوع القلادة من العنق.
[5] النَّضْخ: من عَين نضّاخة، فوّارة غزيرة. ويريد هنا آثار الطعن والجروح.
[6] الفصيد: منفصد العِرقْ: شَقَّه وأسال دمه وخدده.
[7] أبسل نفسه للموت: وطّنها عليه.
[8] شرد البعير: نَفَر واستعصى، أو حاد عن الطريق.

كـــأَنَّ رؤوسَ الـــدارعينَ عَـــشيَّةً   من الحَنْظلِ المُلْقَى بكـلّ صـعيد

فَأَقْلَعَـتِ الغَمَّـاءُ عـنهم وفُرِّجَـتْ   ونحنُ بهـا مِـنْ غـائمٍ وشـهيد

استحل المختار (الكذَّاب) جُلَّ مال الشاعر، وهذا ظلم فادح، فكيـف ينـام المعتدي هانئ البال، وابنُ الحرِّ معتدى عليه؟ ثم يوجه الخطاب إلـى زوجـه أم توبة بأسلوب الاستفهام الذي يفيد التقرير والإثبات، يدعوها إلى تـدبر الأمـر، مؤكداً لها أنه قادر على مواجهة صروف الدهر، مستعد للقاء العدو، جلد حيـال الرزايا، فإن لم يباغتْ قائد المختار بجيشه، فسوف تكـون القيـود والعبوديـة والسجن مصيره، ثم يذكر كيف هدموا داره، وسجنوا زوجته والنـاس شـهود، وكيف أساؤوا إليها...

وهنا يتوعد الشاعر ويهدد بأنه لن يكون ابنَ الحُرّ إذا لم يـزرع الرعـب والخوف في أعماقهم، بخيله المسوَّمة التي تشبه الأُسـود لقوّتهـا وضـراوتها وإقدامها، فقد تعودت هذه الخيل خوض المعارك لكثرتها. ثم يعود إلى الحـديث عن نفسه فيفتخر بعفته وشجاعته ونسبه الماجـد، وبكونـه مطاعـاً لا ينهـزم، يتحدث إلى فتيانه الأشداء حديث القائد المحـب المخلـص لجنـوده المطيعـين أوامره، دون تذمر أو تردد. فهو معجـب بفروسـيتهم، مقـدر كـل التقـدير استجابتهم، يفدِّيهم بوالديه وبماله جميعاً.

ويمزج بين إعجابه بصحبه واعتداده بنفسه، فيذكر أنه أهل لهذه الطاعـة، لأنه كريم لا يبخل عليهم بشيء، بل لا يبخل على كل من يقصده. وفي أحاديثـه عن أصحابه تشيع هذه العذوبة، وهذه الرّقة، وهذه المعاملة الكريمة، وهذا الحب الذين يبادلون به طاعة وإخلاصاً، كما يقول الدكتور خليف[1].

ثم يعرّج الشاعر على وصف المعركة، فيرسم مشهد الدماء التـي تـسيل، نتيجة وقْع الأسنة وطعن الرماح التي تصطبغ بلون الدم إبـان المعركـة التـي دارت رحاها، فانهزم العدو عندما دعي للحرب، أما الشاعر فهو المستجيب لهـا دائماً، حيث يقدم بفرسه على ساحة المعركة وكأنه يطير؛ إذ يبتعد عن سـرجه لشدة استهتاره بالموت، حتى إذا ما اتقاه العدو بالسيوف انقض عليه وفـي قلبـه جَنان لا يخاف، فما تركهم حتى صرع أكثرهم، وترك الباقين في حـال ذهـول لشدة ما أصابهم. وهنا يؤكد الشاعر أن الشهادة أو الصمود طريق الخلود، أمـا

---

(1) حياة الشعر في الكوفة (٤٨٦).

رؤوس قتلى العدو ممن لبسوا الدروع فهي كنبات الحنظل المنثور هنا وهناك.. وهكذا انتهت القصيدة بانتهاء وصف المعركة وإسدال الستار على ما خلفته من نصر وقتل، وما أثارته من مشاعر، فأزالت الغم، وفرَّجت الهم، وابن الحر وجماعته فرسانها، وأبطالها، منهم من كتبت له الشهادة، ومنهم من عاد غانماً ينتظر دوراً في معركة قادمة..

لعل أهم الميزات الفنية في هذه القصيدة، التي آثرنا ذكرها كاملة –تمتعها بالوحدة العضوية، إذ اشتملت على غرض واحد، وخلت من المقدمة الطللية أو الغزلية، أما معانيها فهي تقليدية تضاهي قصائد الفخر الجاهلية والإسلامية، فالقيم التعبيرية هي نفسها، فخر ذاتي وجماعي، وذكر لمراحل المعركة. أما الجديد فهو التعبير عن حادثة تاريخية بعينها ذات أبعاد شخصية، وهي سَجن امرأته ونَهب أمواله وهدم داره إلى جانب بروز الروح الأبوية الحانية الرائعة بأنفاسها الحارة الصادقة، إذْ تستولي على المتلقي مشاعر الحب والإعجاب والفخر، أضف إلى ذلك الحديث عن البطولة والفروسية المتوحد بلغة الحب التي تبوح بالعلاقة الحميمة بين الشاعر وصحبه. أما لغة النص فهي سهلة مأنوسة، معبرة، شكّل الشاعر منها تراكيب واضحة، حملت بعض الصور الفنية القليلة، لأن ديدن الشاعر هكذا، لا يعوّل على التصوير الفني كثيراً؛ لأنه يقرر حقائق ويسرد وقائع بأسلوب واقعي.

ولا يني الشاعر يشيد بانتصاراته، ويذكّر بالمعارك التي خاضها مع صحبه فقد لقي الخثعمي وخيله، وقاتل وصبر في معركة نهر صَرْصَر[١]:

ويوم لقينا الخثعميَ وخيْلَه　　　صَبَرْنا وجالَدْنا على نهر صَرْصَرا

ويوماً تراني في رَخَاءٍ وغِبْطَةٍ　　　ويوماً تراني شاحبَ اللون أغبَرا

وتلك حال الإنسان فهو يعيش في رخاءٍ وسرور يعقبه حزن وكمد، فالذي يبدّد شحوبَ اللون النصرُ المؤزر، وقد تحقق في المعركة نفسها فلا ترى إلاّ المهزوم أو المقتول:

وقد لَقِيَ المرءُ التميميُّ خيلَنا　　　فلاقى طِعاناً صادقاً عند نِفَّرَا

وضَرْباً يزيلُ الهامَ عن سَكَناتِهِ　　　فما إنْ ترى إلا صريعاً ومُدْبِراً

---

(1) شعراء أمويون (١٠٤) ونفر: بلدة من أعمال الكوفة.

ولكن هل اكتفى الشاعر بما حدث في ساحة المعركة، حيث أوقع في قلوب العساكر القادمة إليه من الكوفة الفشل فانهزموا متفرقين، أو قتل من صمد؟ إنه حرر الأرض وطهرها من لصوص الأرض في المنطقة كلها[١]:

نَفَيْتُ لصوصَ الأرضِ ما بين عانةٍ إلى جـازر حتى مدينةِ دَسْتَرا

وفي وقعة (فيّاض) قتل قوماً تسللوا إلى معسكره ليلاً، لكن حارسهم كان متيقظاً[٢]:

أَتَوْنِي بِفَيّاضٍ وقد نام صُحْبَتِي وحارسُهم لَيْثٌ هِزَبْرٌ أبو أَجْرِ

فَقَتَّلْتُ قوماً منهمُ لا أَعِزَّةً كِراماً ولا عند الحقائق بالصُّبْرِ

أما عن يوم (باجِسْرَى) فإنه يذكر هزيمة أعدائه حين غادرهم صرعى بجانب الجسر، أما من بقي منهم حياً فقد ولى يجرر أذيال الهزيمة، هارباً كقطيع النَّعام المذعور[٣]:

ويومٍ بباجِسْرَى هَزَمْتُ وغُودِرَتْ جَماعتُهُم صرعى لدى جانب الجِسْرِ

فَوَلَّوا سِراعاً هاربينَ كأنَّهم رَعِيْلُ نَعام بالفلا شُرَّدٍ ذُعْرِ

ويذكر يوم (تامَرَّا) حيث سالت دماء الأعداء، وحذّر أحد فتيانه من طعنة مميتةٍ[٤]:

ويوماً بتامرَّا ولو كنتَ شاهداً رأيتَ بتامرَّا دماءَهَمُ تجري

وحذَّرْتُ بِشْراً يوم ذلك طعنَةً دُوَيْنَ التراقي فاستهلُّوا على بِشْرِ

وفي وقعة (سَوْراء) بالقرب من بابل، هزم أعداءه شرَّ هزيمة، بعد أن أتوه بجيش عظيم العدد والعدة، وغادروا المعركة يجرّون أذيال الخيبة، بعد أن جبههم الشاعر وصحبه بالسيوف[٥]:

ويوماً بِسَوْراءَ التي عند بابل أتاني أخو عِجْلٍ بذي لَجِبٍ مَجْرِ

---

[1] الاستدراك (٢٩٩).

[2] شعراء أمويون (١٠٥) ومعجم البلدان (٤/ ٤٢٠) والحقائق: جمع الحقيقة: ما يلزم الرجل حفظه والدفاع عنه، ج صابر وصبور: من الصَّبر: أي التجلد وحسن الاحتمال دون جزع أو خوف.

[3] شعراء أمويون (١٠٦) أشعار اللصوص (١/ ٢٦٨).

[4] شعراء أمويون (١٠٦) وتامرّا: اسم لنهر ديالى في العراق، انظر معجم البلدان (٢/ ٧).

[5] شعراء أمويون (١٠٧) عسكر لجب ومجر: كثير، الضرائب: الطبائع، النَّجر: الطبع والمنبت والأصل.

فَثُرْنا إليهم بالسيوف فــأدبروا   لِئَام المساعي والضرائب والنَّجْرِ

ويعيّر الشاعرُ المختارَ الثقفي وأتباعه بأنه هو الذي طردهم وأجلاهم عــن (كَسْكَر) فطهّر الديار منهم، بعد أن انْقَضّ عليهم بخيله القوية الضامرة[1]:

أنا الذي أَجْلَيْتُكُمْ عن كَــسْكَرٍ   ثُــمَّ هَزَمْــتُ جَمْعَكُــم بِتُــسْتُرِ

ثمّ انقضضْتُ بالخيول الضُمَّرِ   حتى حَلَلْــتُ بــين وادي حِمْيَــرِ

وقال في حملة من حملاته[2]:

يا لَكَ يومٌ فــاتَ فيــه نَهْبِــي   وغــابَ عنّــي ثقتــي وصَــحْبي

وعندما التقى ابن الحر بني شبام قاتلهم وقاتلوه، ثم حمــل علــيهم ففــرقهم وبدد شملهم ومزَّق جمعهم، ثم أنشأ يقول[3]:

صَبَحْتُ شَباماً غارةً مُشْمَعِلَّةً   وأخرى نشاهدها صباحاً لــشاكرِ

وهي قصيدة طويلة، لكن ابن أعثم لم يذكر إلا مطلعها[4]. وعنــدما التقــى ابن الحر وفتيانه بقبائل همدان المناصرة للثقفي، وافاهم حاســر الــرأس، قــال مفتخراً وهو يرتجز[5]:

إني أنا الحُــرُّ وابــنُ الحُــرّ   ذو حَــسَبٍ فــي مَــذْحِجٍ وفَخْــرِ

وقــادحٌ لكــم غــداةَ الــذُّعْرِ   بالضَّرْبِ أحيانــاً وطَعْــنٍ شَــزْرِ

أما معاركه ووقائعهُ مع مصعب بن الزبير، فهــي كثيــرة مريــرة. ففــي قصيدته التي يهدده فيها ويتوعده بعد أن عزم على الإغارة عليه، ومطلعها[6]:

فلا كوفَةٌ أُمي ولا بَصْرَةٌ أبي   ولا أنا يَثْنِيني عن الرحلة الكسلْ

يذكِّر ابنُ الحر مصعباً بهزيمته للمختار في يوم العذيب، وبــصموده فــي معركة قصر مقاتل.

---

(1) نفسه (١١٩)، كسكر، تستر، وادي حمير: أسماء أماكن.
(2) نفسه (١١٩)، النهب: الغارة والغرض المعرَّض للإصابة، والغنيمة، وهو المقصود هنا.
(3) الاستدراك (٢٩٥) مشمعلة: متسعة شاملة.
(4) كتاب الفتوح (١٧٢١٦)
(5) الاستدراك (٢٩٥) قادح: ضارب، من قدح الزَّنْد، شزر: أي طعن بالسنان عن يمين وشمال.
(6) نفسه (٢٩٨) أجم: أسكت على غيظ، أو سكت عن الأمر فزعاً، الوقاف: المحجم عن القتال، الفشل: الضَّعف.

ألم يأتكم يوم العُـذَيْب تجالـدي	**به شِيْعَةُ المختار بالمفصل الأَقَـلْ**
وبالقَصْرِ قد جربتموني فلم أَجَمْ	**ولم أكُ وقافـاً ولا طائـشاً فَـشَلْ**
وبارزتُ أقواماً بقـصر مُقاتـلٍ	**وضاربتُ فرساناً ونازلتُ مَنْ نَزَل**

وعن وقعة (عين التمر) التي كانت بين ابن الحـر وأصـحاب مـصعب، يقول[١]:

ألا هل أتى الفتيانَ بالمِصْرِ أنني	**أَسَرْتُ بعين التَّمْـرِ أروعَ ماجـدا**
وَفَرَّقْتُ بين الخَيْلِ لمَّـا تواقَفَـتْ	**بِطَعْنِ امرئٍ قد قام مَنْ كان قاعدا**

فهو لم يأسر إلا الرجل الماجد العظيم في قومه، وهو الذي اقتحم المعركـة فجعل الخيل تتفرق لكثرة الضرب والطعان الذي أذهل الناس وفاجأهم وشردهم.

وفي الأبيات التالية، يتغنَّى ابن الحر بانتصاره علـى جـيش ابـن رؤيـم الشيباني عامل ابن الزبير على المدائن، فقد فرّ من ابن الحر، وعاد إلى مصعب يزعم أنه قد هزم الجعفي، وهذا محض افتراء:[٢]

سلوا ابنَ رُوَيْمٍ عن جِلادي وموقِفي	**بإيوانِ كسرى لا أُوَلِّـيهُمُ ظَهْـرِي**
أَكُـرُّ علـيهم مُعْلِمـاً وتَـراهُمُ	**كَمِعْزَىً تَحَنَّى خَشْيَةَ الذئب بالصَّخْرِ**
وَبَيَّتُّهُمْ في حِصْنِ كسرى بنِ هُرْمزٍ	**بمشْحُوذَةٍ بِـيْضٍ وخَطِّيـةٍ سُـمْرِ**
وأجزَيْتُهم طعنـاً وضَـرْبَاً تـراهُمُ	**يلوذون مِنَّا مُوْهِنـاً بِـذُرَا القَـصْرِ**
يلـوذون منـي رَهْبَـةً ومخافـةً	**لِوَاذًا كما لاذ الحمائِمُ مِـنْ صَـقْرِ**

صمد ابن الحر في تلك المعركة، ثابت القلب، قوي الشكيمة، لا ينهزم، بل كان يكر على عدوه جهاراً، أما هم فقد هربوا مذعورين كالماعز التـي تحتمـي بالصخرة خشية الذئب الذي يريد افتراسها؛ وجعلهم يبيتون في حصن كـسرى، بقوة السيف وفعل القنا، إذ أوقع فيهم طعناً وضرباً، حتـى لاذوا بـالفرار إلـى

---

(1) شعراء أمويون (١٠١).

(2) شعراء أمويون (١٠٥) الفارس المُعْلم الذي عُلِمَ مكانه في الحرب بعلامة، تحنَّى: هنا بمعنى أشفق وخاف مشحوذة بيض: سيوف مصقولة. الخطية: الرماح المنسوبة إلى الخط وهو موضع بالبحرين تباع به جزيتهم: كفيتهم، بمعنى عاقبتهم. موهناً: دخل في الوهن من الليل. والموهن: نحو من نصف الليل. يلوذون: استتر بعضهم بالبعض الآخر وتحصَّن. الحمائم: جمع حمامة.

أعالي القصر هرباً من الموت الزؤام ورهبةً من الشاعر وصحبه، يحتمون منـــه كما تحتمي الحمامة الخائفة من اقتناص الصقر الجارح.

وهكذا يتسم حديثه عن أيامه ومعاركـــه ووقعاتـــه، بـــالجرأة والـــصراحة، والفخر بنفسه وبفتيانه الأشداء على الأعداء، المطيعـــين لـــه، الـــصامدين فـــي ساحات المعارك حيث يبدو من خلال أشعاره هذه بطـــلاً ملحميـــاً، ذا نـــوازع خلاّقة، الأمر الذي يجعل هذه الأبيات على قلتها، أناشيد بطولة خالدة في معارك الظفر والتمرد. فإذا ما افتخر ابن الحر، كان فخره واقعياً صادقاً، لأنه كان حقـــاً صامداً مجابهاً خصومه، بعزيمة قادرة، وقلب شجاع، ومنزلة مرموقة يتمتع بها بين صحبه الصابرين، الثائرين، المستميتين في المعارك.

وصف الخيل والسلاح:

تمرس العرب بالحرب، وأعدّوا لها عدتها، من آلة الحديد ومطايا النـــزال، وأحاطوا أوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمةٌ من أمـــم الحـــرب، فحذقوا الكلام عليها، وأجالوا البيان في وصف آلاتها، وأكثـــروا مـــن العنايـــة بتصويرها، فألموا بدقائقها وأشكالها كلّها. وكان هذا الـــشعر الواصـــف للعـــدة والسلاح شغل شعرائهم الشاغل، وأدبهم في استنباط التشابيه وتوليـــد أفانينهـــا، واستقصاء روائعها، حتى صار ما قالوه في أوصاف الخيل والسلاح تراثاً أدبيـــاً في شعرنا العربي، نكاثر فيه آداب الشعوب[1]. فالسيف والرمح والنبل والناقـــة والفرس في أيدي العرب وسائل لقتل الأعداء، وضرب رقـــابهم أو طعـــنهم، أو اختراق الصدور، أو اقتحام المعركة، أو الانطلاق كالريح تعبر بالفارس علـــى جثث العدى، فإذا هدأت الحرب عادت وسيلة للتصوير الفني. فنظـــرات الغيـــد الحسان كالسيف، وقوام النساء كالرمح، ولحظ العيون كالنبال، والناقـــة صـــديق وفيّ مخلص، والخيل تقطع المفاوز لبنـــاء المكـــارم، فهـــي صـــديق الفـــارس وعشيرته أيضاً. وهذا يعني أن صورة البطل لا يمكن أن تكـــون بمنـــأى عـــن سلاحه وخيله، لأنهما عنصران متلازمان لجلاء صورته المشرقة؛ فسلاحه لـــم يعوّده الخيانة، وفرسه لم يعوّدها الهزيمة. ومن هنا كان الحديث عـــن الـــسلاح والخيل وأناشيد البطولة التي تتجاوب في جوانب أشعاره –علـــى قلتهـــا- فهـــو

---

(1) شعر الحرب في أدب العرب (٤٥-٤٦).

يعاهد سلاحه على الوفاء الأبدي وعدم التراجع عن الهدف، مهما كانت قسوة الظروف، لأن السلاح لم يعوده الخيانة أو الخذلان[١]:

وما خُنْتُ سيفي في اللقاء وما نَبَا ... عليّ إذا ما سُدَّ كُلُّ سبيل

وإذا كان السيف قصيراً، فإنه يصير طويلاً في يد الفارس الذي لا يُهزم[٢]:

إذا أخَذَتْ كَفِّي بقائمِ مُرْهَفٍ ... وكانَ قصيراً عادَ وَهْوَ طويلُ

وعندما ينقض البطل على خصمه، فإنه يكر عليه بخيل تقتحم الصفوف حتى تتضرج نحورها، وهو يطاعنه بالرمح، وأحياناً يضاربه بالسيف[٣]:

أَكُرُّ عليه الخيلَ تَدْمَى نُحُورُها ... أُطاعِنُه طوراً، وطَوْراً أُضارِبه

والخيل عنصر أساس في تهديد الشاعر ووعيده، فهي عدة النصر، يمتطيها فرسان شجعان، هدفهم قتل الأشداء من أصحاب مصعب بن الزبير[٤]:

فإنْ لم أُزِرْكَ الخَيْلَ تَرْدِي عوابساً ... بِفُرْسَانِها، لا أُدْعَ بالحازِمِ البطلْ

إنه بالخيل يصول ويجول، عليها الفرسان، وهي تصهل من تحتهم، متشوقة إلى ساح الوغى، وهي ليست خيلاً من السماء أو الخيال وخوارقه، بل هي خيل من الواقع، تربت في أحضان الصحراء، أو في أحضان الأبطال، حتى ليحس كل منهم أن فرسه بضعة من نفسه، وكأنها جزء لا يتجزأ من نسبه، في آبائه وقبيلته أو عشيرته، فهو فارس الشهباء أو البيضاء أو الوَرْد، ولعلهم لذلك اهتموا بأنسابها، اهتمامهم بأنسابهم دلالة على الأصالة والنفاسة وكأنها فصلت من ذات نفوسهم وقلوبهم وتاريخهم وحياتهم[٥]. فها هي تنقض على العدو فيتساقط، أو أفناها الحصار، والقتلى تتناثر بينهن[٦]:

إلى الله أشكو ما نَرى بجيادنا ... تَسَاقَطُ هَزْلَى مُخُّهُنَّ قليلُ

فإن يكُ أفناها الحصارُ فربَّما ... تشحَّطَ فيما بينهنَّ قتيلُ

---

(1) شعراء أمويون (١١٣).

(2) نفسه (١١١).

(3) نفسه (٩٤).

(4) نفسه (١١٥).

(5) البطولة في الشعر العربي (١٣، ١٤) وانظر كتاب: أسماء خيل العرب وأنسابها للغندجاني، تحقيق الدكتور محمد علي سلطاني، دمشق ١٩٨١.

(6) أشعار اللصوص وأخبارهم (١/ ٢٧٧) وهذان البيتان لم يذكرهما القيسي في (شعراء أمويون) أو مستدركه.

وإذا كان الشعر الذي وصل إلينا يتحدث عن وصف السلاح قليلاً، فإن حديثه عن الخيل يشكل كماً مقبولاً. والحقيقة أن وصف السلاح في شعر الفارس –والخيل أهم ما فيه- لم يكن أمراً معزولاً عن حياته العملية، أو حتى الهادئة، إلى جانب أن هذا الوصف لم يكن ترفاً فنياً، أو تقليداً شعرياً، أو مظهراً للعبقرية، أو القدرة على إبداع الصورة الرامزة فحسب، وإنما كان وصف الخيل لتفتيق القول في قوة الفارس وشدته على الأعداء، وحنوّه ووفائه للخيل التي ربما تشكو إلى الفارس بعبرة وتحمحم، كما فعل فرس عنترة[١].

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ　　　وشكا إليّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

فربّما علَّم امرؤ القيس الشعراء كيف يتحدثون عن الخيل، واستطاع أن يغزو عقول الشعراء في كل ما قال، سواء في موضوع الخيل أم في غيره[٢]، فالفرس في شعره يرمز إلى المطر والخير والذعر وجاذبية الدم والكرم، كما يقول ناصف[٣].

والفرس ذلك الإنسان الكامل، صورة لما يتشبث به الشاعر، أملاً في المستقبل ورغبة في قدر أتم من المناعة والحصانة. إن صورة الفرس صورة الرجل النبيل الذي ملأته العزة والثقة، وهذه الصورة ذات صبغة إنسانية مثالية، ومن هنا كان صوت الفرس صوتاً كريماً مسموعاً لأنه يضيء الطريق أمام الناس، فيبصّرهم بمخاطر الكلام، مصداق هذا الكلام قول عبيد الله بن الحر[٤]:

فما أنا بابن الحر إنْ لم أَرُعْهُمُ　　　بخيلٍ تُعادي بالكماة أسودِ

وما جَبُنَتْ خيلي ولكن حَمَلْتُها　　　على جَحْفَلٍ ذي عُدَّةٍ وعَديد

وقد علمتْ خيلي بساباط أنني　　　إذا حِيْلَ دون الطعن غيرُ عَنود

أكرُّ وراء المُحجرين وأدَّعي　　　مواريث آباءٍ لنا وجدود

فهي خيل وأشد شجاعة من الأسود، هي أداة لزرع الرعب والذعر في نفوس الأعداء لأنها خيل متفانية، حريصة على النصر، لا تجبن ولا تُهزم في

---

(1) شرح المعلقات السبع للزوزني، معلّقة عنترة ص (١٠٩-١٢٣) والبيت ص (١٢٢).
(2) نفسه (٤-٣٤).
(3) قراءة ثانية لشعرنا القديم (٧٧-٨٦).
(4) شعراء أمويون (١٠٢، ١٠٣) وقد سبق أن قمنا بدراسة القصيدة كاملة في الصفحات السابقة.

المعركة، بل هي كالإنسان (تعلم) أن فارسها شجاع، لأن الخيل كائن ملهم، فيه قوة، يحقق كل شيء في ومضة، على الرغم من أنها قد تحجم في المعركة، إلا أنها شجاعة لا تجبن حتى لو استعد أمامها ألوف وألوف من عدد العدو وعدته، فالشاعر يأمر فتيانه أن يجهزوا أنفسهم ويتهيؤوا للقتال والنزال[(١)]:

فإن تكُ خَيْلي يومَ ساباطَ أَحْجَمَتْ وأَفْزَعَها مَرُّ العَدُوّ زحوفُ

فما جَبُنَتْ خيلي ولكن بَدَتْ لها ألوفٌ أتتْ مِنْ بَعْدِهِنَّ ألوف

أقول لفتيانِ الصعاليك أسْرِجُوا عناجيجَ أَدْنَى سَيْرِهِنَّ وَجِيْفُ

إنها دعوة إلى امتطاء الخيل الكريمة، الشابة، وتجهيز عدة الحرب والركوب، فهذه الخيل مزيج من القوة والمقاومة والإقدام والإحجام، لذلك كان سيرها سريعاً ومضطرباً، فيه كرٌّ وفرّ.

وكما قلنا، فإن الفرس جزء من ذات الشاعر الفارس، هذا ابن الحر يصف هذه الفرس عندما اعتذر عن نجدة الحسين عليه السلام، وقدمها له هدية ثمينة قائلاً: "خذ فرسي هذه الملحقة، والله ما طلبتُ عليها شيئاً قطّ إلا لحقته، ولا طلبني وأنا عليها أحد قط إلا سبقْتُه.."[(٢)] ويبدو أن هذا الفرس لم يعوّده الهزيمة في المعارك، كما ذكر وكما يصف، موحداً بين شجاعة الفرس ونجدة فتيانه الصادقين في الحب واللقاء، الذين أسرجوا خيلهم آن الليل يرتحل[(٣)]:

بِفِتْيانِ صِدْقٍ فوق جُرْدٍ كأنَّها قِداحٌ براها الماسِخِيُّ وَسَحَّجَا

وقد دفعه إعجابه بالخيل إلى تشبيهها بالقِداح، لتأكيد ضمورها وسرعتها، ونعومة ملمسها وكرمها. وفي الأبيات التالية تجتمع في قصيدة ابن الحر عناصر الفروسية جميعاً[(٤)].

[(1)] شعراء أمويون (١٠٩) العناجيج، الخيل الكريمة، الوجيف: السير السريع المضطرب.

[(2)] الأخبار الطوال (٢٥١).

[(3)] شعراء أمويون (٩٨) جرد: جمع أجرد وهو القصير الشعر من الخيل، والقداح: جمع قِدْح، عود السهم قبل أن يجعل له نصل، والماسخي: الذي يصنع السهام، سحج السهم: نحته وجعله ناعم الملمس.

[(4)] شعراء أمويون (١١٢) ظماء الفصوص: أي ليست برهلة كثيرة اللحم، وهي مفاصله؛ الأباجل: الأكاحل، الغدو: السير في الصباح الباكر، السبسب: المفازة. المتماحل: البعيد الشديد الطول، المساحل: جمع مسحل وهو اللّجام، أو حلقتان على طرفي شكيم اللجام.

الرعان: الأنف الشامخ البارز. الكميت من الخيل: ما كان لونه بين الأسود والأحمر، البربري: مختلط الألوان، الدلاص: الدروع الملساء مفردها دَلِص، الترك: واحدته تَرْكَةٌ وهي الخوذة أو بيضة الحديد، الصياقل: جمع صيقل وهو صانع السيوف.

متى أَدْعُ فِتْيَانَ الصعاليك يركبوا ظمَاءَ الفُصوص نائماتِ الأباجِلِ

تُشبهها الطَير السراعَ إذا اغتدتْ بفرسانها في السبسب المتماحِلِ

تطيرُ مع الأيدي إذا ارتفعت لها شمائلها ألحقْتَهـا بالمساحِلِ

يقود رِعانَ الخَيْلِ بي وبصحبتي كُمَيْتُ الأعالي بَرْبَرِيُّ الأسافِلِ

علينا دلاصٌ من تُراثٍ مُخَرَّقٍ وتَرْكٍ جلا عنها مَدَاسُ الصياقِلِ

وَمُطَّرِدَاتٌ من رماحِ رُدَيْنَةً وأَتْراسِ جُوْنٍ عُلِّقَتْ بالشمائل

فلو شِئْتَ لم تَسْجُنْ صديقاً ولم تُهَبْ إليك بصقعاءِ المناكب بازل

من الجُرْبِ يُمْرِيها وَدرَّتُها دَمٌ إذا امْتِرِيَتْ أخلافُها بالمناصل

فهو يصف الخيل والإبل والسلاح، ويتحدث عن فتيانه حديث الزعيم الذي يحب أنصاره المخلصين له، المطيعين لأوامره، حديث الأمير الذي يحسن معاملة أنصاره، المعجب بهم وبشجاعتهم وفروسيتهم، يقدّرهم حق قدرهم، فهو عندما يطلب إليهم أن يهبوا إلى المعركة، يسرعون إلى خيلهم الضامرة، التي لم تترهل ولم تكتنز أعضاؤها باللحم، لأنها دائمة الحركة دائبة الجري، بل إنها كالطير الشديد السرعة في طيرانه، إذا انطلقت في الصباح الباكر إلى المعركة، عبر المفازات البعيدة، يمتطيها فرسان شجعان، تعدو بهم بسرعة تجعل مجموعها يلحق باللجام، فقد اعتادت هذه الخيل الحرب والطعان والجري، إذ تكفيها الإشارة باليد لتصبح سرعتها خارقة، يقود هذه الخيل الشامخة إلى العلياء فرس كميت بديع اللون. ثم يتحدث الشاعر عن سلاحه فيصف درعه بأنها ملساء قوية الصنع، أما الخوذات فهي تبرق لامعة كأنها خرجت تواً من جلي الحداد. أما الرماح القصيرة فردينيّة شهيرة تعانق التروس ذات اللون الأسود المصطبغ بحمرة الدم، لكثرة ما استخدمت في القتال. وفي أثناء هذا الوصف المعجب للسلاح والخيل يلتفت الشاعر إلى مصعب مقرّعاً ومهدداً، فلو لم يسجن الشاعر لما هبت إليه جموع

جون: سوداء فيها حمرة، صقعاء المناكب: أي قوائمها بيضاء، البازل: صفة للجمل الذي شق نابه في السنة الثامنة أو التاسعة.

الجُرْب: النوق القوية الشديدة، يمريها: يحملها على، درها دم: أي لشدة عدوها امتلأت عروقها بالدم، امتريت: حملت على السرعة، الأخلاف: ما تحت الإبط، المناصل: السيوف جمع مَنْصَل، وغيّرنا في ضبط بعض الألفاظ اعتماداً على رواية أشعار اللصوص (١/ ٢٨٠).

المحاربين، المدججة بالسلاح، تمتطي الإبل القوية التي إذا ما حملت على السرعة، استجابت، حتى امتلأت عروقها دماً لشدة سرعتها، فالفرس والسيف والترس والرمح والناقة عدة الفارس، ووسائله إلى النصر، بل هي أعضاء من جسمه، وقطعة غالية من روحه، وجزء من نفسه أو نسبه.

وصف فتيانه أو جماعته:

لم يخل حديثنا السابق من وصف ابن الحر لأصحابه أو فتيانه من الصعاليك، ذلك لأن هؤلاء هم كذاته، بهم يغير وبهم ينتصر، يقودهم في كل آن ومكان إلى الغزوات فيلقى منهم الاستجابة والطاعة، وقد ورد ذكرهم في معرض الحديث عن السلاح والخيل، لأن المقاتلين أو القائد والسلاح والخيل ثالوث الحرب المقدس، إلا أن فتيانه أرفع منزلة وأروع مكانة من عناصر الحرب والحب، إنه بهم يتّقي نوائب الدهر وظلم الأمراء الجائرين، وقد لوّن صوره الشعرية بألوان رائعة، وهو يتحدث عن هؤلاء الذين أطاعوه، منحهم من صور الشجاعة والبطولة ما جعلهم في عداد الأبطال، فهو لم يتحدث عنهم إلا وكانت وجوههم مصابيح في داجٍ توارت كواكبه...[١].

يتناول ابن الحر في شعره أوصاف جماعته من المقاتلين، بطولاتهم، وملامحهم الخارجية وصفاتهم النفسية، وأخلاقهم، ويطلق عليهم لقب (الصعاليك) دلالة على كونهم ثواراً يحملون رسالة، ويدافعون عن قضية، وينتصرون لموقف نبيل، وهم فتيان صدق، لم ينجب الدهر مثلهم، يستجيبون لنداء الشاعر، وفيهم عفّة وإباء، لا يفرحون بالغنائم مهما عظم قدرها ومقدارها، إنهم فتية وجوههم مشرقة وضيئة[٢]:

كأنَّ عُبَيْدَ الله لم يُمْسِ ليلةً موطَّنَةً تحت السروج جنائبه

ولم يَدْعُ فتياناً كأنَّ وجوههم مصابيحُ في داجٍ تَوارَتْ كواكبُه

وإذا ما صرخ من أعماق السجن والقهر، فلن يسمع صرخته إلا هؤلاء الذين يجمعهم والشاعر الحنين إلى الحرب حفاظاً على الحرية[٣].

فَمَنْ مُبْلِغُ الفتيانِ أنَّ أخاهُمُ أتى دونَه بابٌ مَنيْعٌ وحاجبُهْ

---

(1) شعراء أمويون (٧٣).
(2) نفسه (٩٤).
(3) شعراء أمويون (٩٣).

بمنزلةٍ ما كان يرضى بمثلِها إذا قام عَنَّتْهُ كُبُولٌ تُجاوبه

على الساق فوقَ الكَعْبِ أسودُ صامتٌ شديدُ يُدني خَطْوَهُ ويقاربه

فهو في غياهب السجن، دونه باب وسجَّان، وهو في وضع يرفضه، إذ إنَّ القيود تتعبه وتغضبه، فرجله مقيّدة بالحديد، وحركته شبه معدومة، فمن ينقذه إلا إخوته الفتيان؟ والشاعر عندما يخاطبهم يوجه إليهم حديث القائد إلى جنده، الأب إلى أولاده، إنه يفديهم بالوالدين ويهين كل ما يملك من طارف وتليد من أجلهم، لأنهم فتيان مساعر، أشداء، وأصدقاء خُلَّص، ودودون[(١)]:

أفدِّيهمُ بالوالدين وفيهُمُ نوافذُ طَعْنٍ مثلُ حَرّ وَقُودِ

ترى النَّضْخَ مِنْ وَقْعِ الأسنَّةِ بينهم جَسِيْداً بلبَّات لهم وخدود

وهم أبناء الليل، الشجعان، ورفاق الدرب والسلاح في الأوقات كافة، إذا تحدثوا لا تسمع لهم لغواً، وإذا غنموا لا يفرحون، لأنهم زاهدون في الجزيل الكثير، تسود بينهم العدالة والمساواة، ويضمهم التلاحم[(٢)]:

ولليل أبناءٌ وللصُّبْحِ إخوةٌ وأبناءُ ليلي مَعْشَري وقَبيلي

إذا نطقوا لم يُسْمَعِ اللَّغْوُ بينهم وإن غَنِمُوا لم يفرحوا بجزيل

والشاعر على حبه العظيم لفتيانه، يُقَرِّعُ المتخاذل منهم، بل يقتله[(٣)]:

أقول لأصحابي بأكنافِ جاذرٍ وراذانِها هل تأمُلون رجوعا؟

فقال امرؤ هيهاتَ لستُ براجعٍ ولم تكُ للتقنيط منه بديعا

فَعَمَّمْتُه سَيْفِي وذلك حالتي لِمَنْ لم أجِدْهُ سامعاً ومطيعاً

فليس ثمة حياة للرافض أو المتخاذل أو الذي يخاف الموت، لأن أصحاب الشاعر مؤمنون بالنصر أو الموت، وقد عاهدوا أخاهم على السمع والطاعة، وعلى غزو عدوهم في كل زمان ومكان[(٤)]:

---

(1) شعراء أمويون (١٠٣) النضخ: الأثر يبقى في الثوب وهو هنا الجراح الفوّارة الغزيرة. جسيد بلبات: أي أن الدم يبس في نحورهم.

(2) نفسه (١١٣).

(3) شعراء أمويون (١٠٨) جاذر: قرية من نواحي النهروان من أعمال بغداد، قرب المدائن. (ياقوت ١/ ٩٤) وراذان: كورة بسواد بغداد.

(4) نفسه (٩٨) أسرُجا: جمع سرج، الغمرة: الشدة: حتى تفرجا: حتى تتكشف.

وَمَنْزِلةٍ يا بنَ الزبير كريهةٍ شَدَدْتُ لها من آخر الليل أَسْرُجَا

بِفِتْيانِ صِدْقٍ فوق جُرْدٍ كأنها قِداحٌ يراها الماسِخيُّ وسَحَّجَا

إذا خرجوا من غَمْرةٍ رجعوا لها بأسيافِهم والطَّعْنِ حتى تَفَرَّجَا

متى تأتِنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تأجَّجا

أعد لهذه الواقعة قبيل انبثاق الفجر، حيث استعد الفتيان الأشداء فأسرجوا خيولهم القوية، ليخوضوا معركة إثر معركة بأسيافهم ورماحهم إلى أن يحققوا النصر، فالشاعر وصحبه قوم متى ألمَّ بهم أحد فإنه سيلقى العون والعطف والقِرى وكرم الضيافة. وجماعة الشاعر لا يضربون الأعداء إلا على رؤوسهم، إذا ما طعنوا فإنهم رابطو الجأش لا ترتعش أكفهم لأنهم يصنعون النصر، ويرنون إلى العُلا:[١]

الضاربون من الأقوام هامَهُمُ بحيثُ يُفْرَعُ عن هاماتها الصَّلَعُ

والطاعنون ولم تَرْعَشْ أكفُّهُمُ إذا العوالي بأيدي القوم تُخْتَرَعُ

شُمُّ العَرَانينِ ساداتٌ كَأَنَّهُمُ بِيْضُ السيوفِ التي لم يَعْلُها الطَّبَعُ

إنه منتصر بهؤلاء السادات الذين يصفهم بأنهم كالسيوف المشحوذة التي تبرق إذ لم يعلُها الصدأ، فهم صادقون، محبون، يسود بينهم الوئام، يواسون المحزون، ويكرمون طالب القِرى[٢]:

بفتيان صِدْقٍ لا ضغائن بينهم يواسون مَنْ أقوى ويُعطون مَنْ سأل

والشاعر يقتل الخوَّار المتخاذل من فتيانه، ويبكي المقاتل الذي يقضي في المعركة مضحياً بروحه[٣]:

فإن تكُ خيلي يوم تَكْرِيْتَ أحجمتْ وقُتِّلَ فرساني فما كنتُ وانيا

وما كنت وقَّافاً ولكنْ مبارزاً أقاتلهم وحدي فُرادى وثانيا

---

[1] الاستدراك (٢٩٦-٢٩٧) رَعِشَتْ كفُّه: جبان، والعوالي، جمع عالية، وهي النصف الذي يلي السِّنان من القناة، يخترع: ينكسر. العرنين: ما صلب من عظم الأنف أي هم أعزّة أباة. والطَبَع: الوسخ أو الصدأ.

[2] نفسه (٢٩٨).

[3] شعراء أمويون (١١٨) شُزَّب: جمع شازب وشازبة، وهو الضامر من الحيوان والمذلل. وناشيا: تخفيف ناشئاً.

دعاني الفتى الأسْديُّ عَمْرُو بنُ جُنْدُبٍ **فقلتُ لـه: لبّيـكَ لمـا دعانيـا**

وأُقْـسِمُ لـو فُوْدِيْتُـهُ لافْتديتُـه **بأهلي وما جَمَّعْتُ كهـلاً وناشـيا**

يَعِزُّ على ابـن الحـرِّ أن راحَ راجعـاً **وخُلِّفْتَ في القتلى بتكريتَ ثاويـا**

ألا ليت شعري هـل أرى بعـدما أرى **جماعةَ قومي نُـصْرَةً والمواليـا**

وهل أزْجُرَنْ بالكوفـة الخيـلَ شُـزَّباً **ضوامِرَ تَرْدِي بالكُمـاةِ عوديـا**

فـألقى عليهـا مُـصْعَباً وجنـودَهُ **فأقتـل أعـدائي وأُدْرِكُ ثاريـا؟**

لَعَمْرِيْ لقـد طاعنْـتُ دونـكَ بالقَنَـا **وَجَالَدْتُهُمْ لو أَنَّ للحَتْـفِ واقيـا**

لعمري لقـد آسـيْتَنِي حـين أدبَـروا **وما زِلتَ محمودَ اللقاءِ مُواسـيا**

ومـا كـان ظَنِّـي إذ أقاتـلُ دونَهـم **عَـدُوَّهُمُ ألا يكونُـوا ورائيـا**

فهو في هذه اللوحة الشعرية الباكية، يتحسر على قتلاه الـذين أوقـع بهـم أصحاب مصعب بن الزبير في تكريت، فلم ينجُ إلا الشاعر، ويحاول أن يـسوغ موقفه، ويخفف من وقع هذه المأساة العنيفة في نفسه، فإن تكن خيله قد أحجمـت في تلك المعركة، وقتل فرسانه، فإنه لم يكن متخاذلاً مهزوماً، إذ لم يكن يتلقـى ضرب السيوف مدافعاً، وإنما كان مبادراً مبارزاً، ينقض علـى العـدو وحـده، يضاربه أكثر من فارس. أما عندما ندبه الفتى الأسدي أو الأزدي فـي روايـة أخرى، فقد لبى نداءه، ويقسم الشاعر الحزين بأنه لو استطاع أن يفدي فتاه بأهله وبما له لما تردد، ثم يعود إلى وصف نتائج المعركة فيصبر على وقع المأسـاة، حيث عزّ عليه وصعب أن يعود وقد خلّف أصحابه شهداء، ويشتد به الألم ممـا حدث، فيهدهد أحزانه الأمل والعزم على نصرة جماعته أو الثأر لهم بوقعـة لا تبقي ولا تذر، فيقهر مصعباً وجيشه. ثم يعود إلى قتلاه، وقد أمضه الألم، وكأنه يدافع عن نفسه، وهو غير مدان، فيقسم أنـه طـاعن دون أصـحابه بالرمـاح، وصمد في المعركة دون أن يخاف الموت، وهو حق، ويقسم ثانية أنه حزين لما حدث وأن فتاه قد ناضل دون هوادة، ويختم هذه اللوحة الشاحبة بذكر أنـه لـم يكن يظن أن أصحابه لم يكونوا خلفه وهو يقاتل عدوه لأنهم لم يعودوه الهزيمة، لكنهم قتلوا..

إن إعجاب ابن الحر بفتيانه لا حدَّ له، انظر إليه يتحسر لعدم وجود أربعة رجال كصاحبه جرير كي يسيطر على بيت المال:[١]

لو أن لي مثلَ جَرِيرٍ أربعهْ صَبَّحْتُ بيتَ المالِ حتى أجمعه

ولم يَهْلِنِي مُصعَبٌ ومَنْ معه نِعْمَ الفتى ذلكمُ ابنُ مُشْجَعَهْ

ويتمنى أيضاً لو أن له فتى مثل المُجَشَّر، الفارس الذي ساعده في إحدى وقعاته بضرب السيف والطعن في العدا:[٢]

لو أنَّ لي مثلَ ا لفتى المُجَشَّرِ ثلاثَةً بَيَّتُّهُمْ لا أمتَري

ساعدني ليلةَ ديرِ الأعور بالطعن والضرب وعند المعبر

لَطَاحَ فيها عُمَرُ بنُ مَعْمَرِ

وهكذا يرسم ابن الحر بالكلمات الموحية صوراً لسلاحه وخيله وفتيانه، فهو يريد أن يواجه سائر الأشياء: فصورة الفرس كما بدت هي صورة الرجل النبيل الذي ملأته العزة والثقة، ضمن أبعاد إنسانية واضحة، فالفرس دائم الشباب، أي إنه طاقة إبداعية، وحياة دافقة، أما عَدْوُ الفرس فهو نمط من القدرة الخارقة حيث يبدو كأنه يرسم خطوط وجوده، وهنا ترتبط طبيعة الفرس وأوصافه بالشجاعة، أما الناقة فهي رمز الصبر والقدرة على الفعل، والرغبة في استمرار الحياة، لأنها أم وصديق، أما السيف فهو قاطع بتَّار مضيء كالزمان الذي يرنو إليه الشاعر وفتيانه الذين هم كمصابيح الدجى غُررٌ، شُمُّ الأنوف، وكذلك القول في الرمح والنبال والترس.. وبذلك لم تكن صورة البطل معزولة عن سلاحه وخيله، بل هما عنصران متلازمان في تكميل الجانب المعنوي فيها، لأن وصف السلاح إنما هو أناشيد حماسية تتجاوب في جوانب شعر ابن الحر، فتضيء الأعماق وتبعث مشاعر العزة والشمم، تماماً كصنيع هذا الفتى الذي هب بعد هجعة يهيئ السرج، وقد لبس ترسه البرَّاق الأملس

---

(1) شعراء أمويون (١١٩)، يعني جرير بن كريب، كان صاحب ميسرته، يهلني: من وَهَل الرجل: سها، أو فزع إليه، وتوهَّله: عَرَّضه للغلط.

(2) شعراء أمويون (١١٩) المجشر: من جَشَرَ الرجلُ عن أهله إذا سافر، بيَّتهم: أوقعت بهم ليلاً بغتة، لا أمتري: لا أشك في الأمر، طاح: هلك.

الذي يشبه سطح الغدير النمير رقة، أما خوذة الفارس فكقبس من النار، تضيء أو تتلألأ:[١]

وأبيضَ قد نَبَّهْتُه بعد هَجْعَةٍ وقد لبس الليلُ القميصَ الأرندجا
وَجَدْتُ عليه مَغْرَماً فقبضْتُه وَفَرَّجْتُ ما يُرْجَى به أن يُفَرَّجَا

فهو حانٍ على فتاه، يوقظه بعد أن نعم بقسط من الراحة، والليل قد ارتدى لباس السواد الحالك، على أنه ينبغي أن نلحظ دلالة المقابلة بين فتاه الأبيض والليل الأسود، أما في البيت الثاني فتبرز روح الأب القائد الذي يفرِّج كرب ابنه المحزون.

السجن والتحدي

لا تكتمل جوانب صورة البطل الفارس إلا إذا عجنا على عالمه الشعري حيث يتحد القول بالفعل، وهنا تستوقفنا صورة السجن، ومكان العبودية الذي يحدُّ من حركة المقاتل فيسلبه حريته وإنسانيته. فالسجن كما يبدو من أبيات ابن الحر مثير قوي لموقف الثبات والحزم والعزم، وتحدي صروف الدهر ونوائب الأيام، وهو في الوقت نفسه مدعاة للجلَد والتجمل، فمن أعماقه تنطلق صرخة التحدي والوعيد والتهديد بالانتقام من الجلادين والظالمين والجائرين.

وهذا الغرض الشعري من الموضوعات الجديدة في الشعر الأموي، لأنه مرتبط بالأحداث السياسية وبحركة الصعلكة والتمرد والثورة على النظام القائم. أما عبيد الله بن الحر فإنه يصف نفسه داخل السجن أسداً جريحاً، حبيس القفص. إنه مكبَّل بالقيود، ومقيد بالكبول التي تتجاوب أصواتها مع الأصفاد في أرجاء السجن إذا ما تحرك. أما باب السجن فمنيع، يحرسه سجَّان قوي غليظ. وشاعرنا قيد الحديد، يغيظه هذا الوضع الممض، فيستمد منه عبرة للمستقبل، حيث علّمته حياة السجن والقيد وقسوة التعذيب الصبر عند الشدائد، والأمل بالآتي:[٢]

وفي الدَّهْرِ والأيامِ للمرءِ عبْرَةٌ وفيما مضى إنْ نابَ يوماً نوائبُهْ

[1] الاستدراك (٢٢٩): الأرندج: جلد أسود تعمل منه الأحذية، أو طلاء أسود، المَغْرم: الغرامة، والمُغْرَم المولع بالشيء لا يصبر على مفارقته، أو المثقل بالدين.

[2] شعراء أمويون (٩٣) النوائب: ما ينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة. الدأب: الملازمة والاعتياد من غير فتور، والدائبان الليل والنهار. الغنم: الفوز بالشيء من غير مشقة. أناهبه: أباريه فأفوز به. الحباء: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به. والحجول: جمع حجْل: القيد.

دعاني إليـــه مُـصْعَبٌ فأجبْتُــهُ نهـــاري وليلـــي كلُّـــه أنـــا دائبـــه
أروح وأغـــدو دائمـــاً وكأنّمـــا أُبادر غُنْمَـــاً فـــي الحيـــاة أُناهِبُـــه
فكان حبـــائي إذْ أَنَخْـــتُ ببابـــه حُجُولٌ وأحراسٌ وصَـــعْبٌ مَراتبـــهْ

فالمشاعر الأصيلة تجد قدرتها على التعبير فـي ظـل العبودية والقيـد والاستلاب، والقهر والضيق الذي يحيط بالشاعر، فتختلط فـي أعماقـه نزعـة الحرية ومشاعر العبودية، وظلال هذه الأبواب المنيعة، وصورة هذا الحـارس السجّان الغليظ القلب واليد. فالشاعر يصور في الأبيات التالية الأغلال والقيـود من داخل السجن، ويصرخ بألم لأنه يخشى أن يموت حتف أنفه فـي الـسجن، وهذا ليس من هدفه. فالميتة في نظره لا تطيب إلا في ظل الـسيوف والطّعـان وخفق البنود، يقول:[1]

لَنِعْمَ ابْنُ أختِ القوم يَسْجُنُ مُصْعَبٌ لطـــارق ليـــلٍ خـــائفٍ ولنـــازلِ
ونعمَ الفتى يا بنَ الزبيـــر سَـــجَنْتُمُ إذا قَلقَتْ يومـــاً صُـــقُوْرُ الرَّحائـــل
فلو متُّ في قومي ولم آتِ عَجْـــزَةً يُضَعّفُني فيها امـــرؤٌ غيـــرَ عـــادل
فأكرِمْ بها مِـــنْ مِيْتَـــةٍ إنْ لَقِيْتُهـــا أُطاعِنُ فيهـــا كُـــلّ خِـــرْقٍ مُنـــازل
وما كنتُ أخشى أَنْ أَرانْـــي مُقَيّـــداً على غيرِ جُرْمٍ وسْطَ بكرِ بنِ وائـــلِ

فالسجن في نظره هو التحدي الذي به يجابه، ويبرهن على مقدرتـه علـى التصدي، على الرغم من أن السجن ليل دائم، لا تشرق شمسه، وخـصوصاً إذا كان مقروناً بتضييق السجّان[2].

فلم أَرَ يوماً مثلَ يومٍ شَـــهِدْتُهُ أبَتْ شمسُه مع غيمـــه أن تَغَيَّبـــا

فهو يوم أسود لا نهاية له، وليس له نظير في حياة الشاعر التـي عـشقت الحرية.

وفي الأبيات التالية، يذكر أن قوم ابن الحر بعثوا إليه وهـو فـي سـجن مصعب. أنهم عزموا على أن يسيروا إليه ويكلموه في أمر الشاعر، وقد رغبـوا

---

[1] شعراء أمويون (١١١) في حماسة البحتري: (٢٩) لو مُتّ، وأكرم بها- الخرْق: الأحمق، أو الخائف، والعجزة: الضعف وعدم القدرة على عمل ما وفي أشعار اللصوص (٢٧٩/١) غير عادل. ولأكرم بها.
[2] الاستدراك (٢٩٦).

في أن يكون معهم أبو النعمان إبراهيم بن الأشتر، ولا بأس من سؤاله أن يركب معهم، فإنه عظيم القدر عند الأمير مصعب، ولعله يستحي منه فيشفع في ابن الحر، فكتب الشاعر إلى ابن الأشتر[1].

بانَ الملامةَ لا تُبْقِي ولا تَدَعُ ... ولا يزيدُكَ إلا أنها جَزَعُ

لم تُبْق معذرةً سعدٌ فأعذرها ... ولا مُرَادٌ وكانوا بِئْسَ ما صنعوا

والحارثيّون لم أَرْضَ الذي نطقوا ... عندَ الأمير وشرٌّ المنطق الشّنِعُ..

يبدو ابن الحر موزع النفس بين وقار الحليم، وآلام المظلوم، وكبول الأسير، وآمال الحر في الشفاعة ومن ثم الحرية، وتقريع الأهل لتركهم إياه، فهذا ذل لا يغسله ماء الفرات على غزارته، دون أن نقف على معنى فيه تذلل أو طلب الصفح، أو إهانة النفس بل إنه كالليث المقهور يحاول أن يفك أسره، فيهاجم الشانئين والوشاة، ويهدد ويتوعد أولئك الذين أوغروا صدر الأمير، فحبسه فكان ذلك عاراً وشناراً على الأهل والعشيرة. فنفثة الحزن تتصاعد من أعماق الشاعر الذي يعاني من قيود السجن والظلم، لأن صورة السجن في نفس ابن الحر تقترن بمجموعة من الصور الإنسانية التي كان لها أبعد الأثر. فسجنه لم يكن مصيبة شخصية فحسب، وإنما كان حرماناً لكل طارق ليل، أو خائف، أو ملهوف يريد العون، وبذلك كان السجن تحدياً يبرهن على قوة الفارس الأسير، وخصوصاً إذا ما كان سجن الزوجة الحبيبة دافعاً إلى الشعر.

المرأة في شعره:

إن المرأة في حياة ابن الحر وشعره رمز للحقيقة التي يدافع عنها، رمز للذود الذي يجب أن يضعه البطل نصب عينيه. إنها الزوجة الحبيبة المخلصة، فلماذا لا يكون باعثاً قوياً من بواعث الفروسية، ومنطلقاً من منطلقاتها الهامة. فربما كانت المرأة رمزاً للوطن الصغير، البيت الذي هدّمه حقد العدو وحوّل سعادته إلى شقاء، أو الوطن الكبير حيث لا ظلم ولا عسف ولا غبن ولا عبودية.

[1] الاستدراك (٢٩٦) بان الشيء: أوضحه وأفصح عنه فهو بائن، وبان الشيء بينا: فصله وقطعه، وبان صاحبه: فارقه وهجره وفي أشعار اللصوص (٢٧٢/١) إن الملامة.. ولا تزيدك. الجزَع: عدم الصبر على ما ينزل بالمرء. الشنع: القبيح والكريه.

لم تكن المرأة في عصورنا المختلفة أقلّ من الرجل حميّةً وحماسة، وهنا لا نتحدث عن المرأة التي كان الشاعر العربي يفتن في وصف مفاتنها ومواضع الإثارة فيها، أو يتحدث عن صدّها وهجرها، ودلالها وغدرها، ولا نعني المرأة القينة أو المغنية أو الراقصة أو الساقية في مجالس الخمرة، ولا الزوجة المناكدة.. وإنما نعني المرأة التي يتحدث عنها الفارس البطل، الزوجة الصالحة الشجاعة التي تقف خلف عظيمها، تحثه على تحقيق هدفه، ولا تتهالك. فقد ظلت المرأة رمزاً من رموز الفروسية، ووحياً من إيحاءات الأبطال الذين اتخذوا منها مركزاً قوياً لحركة القصيدة، وربما كان هذا الدافع وما تركزت حوله من مشاعر هو الأساس الذي دفع ابن الحر إلى أن يفتتح قصائده ومقطعاته الشعرية بتوجيه الحديث إلى (أمّ تَوْبة) ودأب على أن يكون هذا الافتتاح بعبارة (ألم تعلمي)، ودأب أيضاً على أن يكون الحديث عن (أنني أنا..) وهو التزام قديم عودنا إيّاه الشعراء وهم يذكرون أنفسهم ويحمون حقائق أقوامهم. وقد يجد الشاعر في هذا الحديث تنفيساً عن الرغبة التي يريد الحديث عنها، وهو يوحي بأمثال هذا الحديث، ويغري الشاعر بالإكثار منه من غير تبجّح، وإنما من باب الحماية الحقيقية التي يجب أن يكون البطل متصفاً بها. فالمرأة رمز للحقيقة التي يدافع عنها الشاعر[1].

ذكر المؤرخون[2] أن المختار الثقفي سمع ما يعمل ابن الحر في السواد، حيث كان يأخذ مال السلطان، ويتقصى الكور، فأخذ امرأته فحبسها، فأقبل عبيد الله في أصحابه إلى الكوفة فكسر باب السجن، وأخرج امرأته وكل امرأة فيه، وكان في مائة وثمانين فارساً، معهم الفؤوس والكلاليب لمكابرة السجن، وقاتلهم يؤمئذ، وخرج آخر النهار من الكوفة وأودع امرأته في بيوت جُعفَى، وقال[3]:

ألَمْ تعلمي يا أمَّ توبةَ أنني ... أنا الفارسُ الحامي حقائق مَذْحجِ

وأنّي صَبَحْتُ السِّجْنَ في رَوْنق الضُّحى ... بكل فتى حامي الذِّمارِ مُدَجَّجِ

فما إنْ بَرَحْنَا السجنَ حتى بَدا لنا ... جبَينٌ كقَرْنِ الشَمس غير مُشَنَّجِ

وَخَدٌ أَسِيلٌ مِنْ فتاةٍ حَيِيّة ... ألا فَسَقَاها كَلُّ مُزْنٍ مُبَعَّجِ

فما العيشُ إلا أن أزورَكِ خالياً ... كعادتنا من قبل حَرْبى ومُخْرَجى

---

(1) شعراء أمويون (٦٩-٧٠).

(2) الكامل (٤/ ٢٨٩) وأنساب الأشراف (٥/٢٩٣)، الطبري (٦/١٢٩)

(3) شعراء أمويون (٩٩-١٠٠) وأشعار اللصوص (١٢/٢٥٩-٢٦٠) وقد آثرنا روايته بعض الألفاظ.

وما أنتِ إلاّ مُنْيَةُ النفس والهوى	عليكِ سلامٌ من حبيبٍ مُسَحَّجِ
وما زِلْتُ محزوناً لحبسك واجماً	وإني بما تَلْقَيْنَ من بَعده شجي
فبالله هل أبصَرْتِ مثليَ فارساً	وقد ولَجوا في السّجْنِ من كلّ مولَجِ
ومثلي يُحامي دُونَ مثلكِ إنني	أشُدُّ إذا ما غَمْرةٌ لم تُفَرّجِ
أضاربُهمْ بالسيف عنكِ لتَرْجعي	إلى الأمنِ والعيشِ الرفيعِ المُخَرْفَجِ
إذا ما أحاطوا بي كَرَرْتُ عليهمُ	كَكَرّ أبي شبْلَيْنِ في الخَيْس مُحْرَجِ
دعوتُ إليّ الشاكريّ ابنَ كاملٍ	فولّى حثيثاً ركْضُهُ لم يُعَرّجِ
فإنّ يَدعني باسمي كررتُ عليهم	خيُولَ كرامِ الضَّرْبِ أكثرُها الوجي[١]
ولا غرْوَ إلا قولُ سَلْمى ظعينتي	أما أنتَ يا بنَ الحُرّ بالمُتَحرّجِ
دَعِ القومَ لا تقتلْهُمُ وانجُ سالماً	وشَمِّرْ هداك الله بالخيّل واخْرُجِ
وإني لأرجُو يابنةَ الخيرِ أن أُرَى	على خير أحوالِ المُؤَمّلِ فارتجي

ففي هذه القصيدة يلم الشاعر بأكثر القيم التعبيرية المتصلة بصورة المرأة في شعره، فهو يستهلها بهذا الاستفهام التقريري[٢]، الموجه إلى (أم توبة) يليه الحديث عن نفسه (أنني) فهو الفارس الذي يصون العرض والأرض بقوة وعناد، وما إن حرر زوجته حتى بدا له جبينها المشرق الوضيء كنور الشمس، وهنا يمزج الافتخار بفروسيته المنتصرة، وبنجواه العذبة الرقيقة عندما يتحدث عن زوجته الحبيبة، وإليها، فيعبر عن حزنه وهياجه منذ أودعت السجن، وعن

(1) مذحج: قبيلة الشاعر. صبحت: اقتحمت. قرن الشمس: ضياؤها. أسيل: أملس. المزن المبعّج: المطر الغزير الذي يشق الأرض لشدته. الحبيب المسحّج: الذي أثر فيه الحب. وسحّج: قشر. المولج: المدخل. الغمرة: الشدة. المخرفج: الواسع الناعم. الخيس: الأجمة، الشجر الكثيف الملتف، وهو موضع الأسد، والجمع أخياس، الوجي: مفرد أوجياء، وهو الفرس الذي رقت قدمُه أو حافره من كثرة المشي. المتحرج: من وقع في شدة وضيق.

(2) يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معان أخرى تفهم من سياق الكلام وقرائن الأقوال منها: النفي، التسوية، الإنكار، الاستبطاء، التعجب، التمني، الوعيد، التنبيه، التشويق، التعظيم.. والتقرير ومعناه: حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده بثبوته أو نفيه انظر: علم المعاني: د. درويش الجندي، ص(٥٢) وما بعدها.

سعادته حين أطلق سراحها بالقوة، فبدت رائعة الجمال، شديدة الحياء داعياً لهـا بالسقيا، ثم يبثها حنينه، ويتحدث عن غيرته عليها، وتلك دوافعه للإغـارة مـع فتيانه، ثم يوجه الحديث إلى أم توبة قائلاً: ما قيمة الحياة من دونك؟ فأنت منيـة النفس، وحبة القلب، عليك السلام من حبيبك الوامق المحزون لبعدك عنه، إنـه واجم، هائم بحبها، ثم يستحلفها هل رأت فارساً قبله يصنع من البطـولات مـا صنع ابن الحر؟ وهل ثمة مغوار بطل يدافع عن حليلته مهمـا كانـت ظـروف المعركة قاسية، إنه يضارب السجانين بالسيف دفاعاً عن حليلته لتعود إلى حيـاة الدّعة والأمن والعيش الكريم. ولا يكف الشاعر الحازم البطل عن الحديث عـن نفسه فيصف ثباته في القتال، وخوف امرأته وإشفاقها عليه، فـإذا مـا حـاول الأعداء تطويقه، كرّ عليهم كأسد هصور يدفع القتل عن شبليه الصغيرين، وقـد فوجئ بالقتلة. لقد دعا أحد قادة المختار للنزال إلا أنـه فـر هاربـاً مهزومـاً مخذولاً، أما الشاعر فإنه إن دُعي إلى حرب أو مكرمة، فإنه يلبي، ويكرّ علـى العدو بخيول كرام تعودت النزال والقتال، سريعة الحركة.. أما خـوف زوجتـه فقد ترك أثراً عميقاً في نفسه، إنها تدعوه إلى ترك ما هو فيه من كرب وحرب، لكنه يختم الأبيات مجيباً: إنني أرنو إلى تحقيق الآمال والطموحات جميعاً، وهو لن يكون إلا حيث يجب أن يراه الناس، رمزاً وأملاً، رابطاً بين زوجته والخيـر (يا بنة الخير). يلي ذلك حديث عن فتيانه، حيث يفخر بهم ويثني على بلائهـم، وأخيراً يشيد بكرمهم وبطاعتهم له.

وكما هو واضح فإن الشاعر يكثر من الحديث عن بسالته وشجاعته وقـوة أصحابه، ويقرن ذلك بحبه لزوجته وغيرته عليهـا، وركوبـه الأهـوال بغيـة افتكاكها. وبذلك تتحد معاني الحب بالفروسية والبطولة، وتبـدو هـذه الظـاهرة كذلك في قوله[1]:

ألم تعلمي يا أمّ تَوَبـة أننـي ... على حـدَثان الـدّهْرِ غيـرُ بليـد

أشدُّ حيازيمي لكـلّ كريهـةٍ ... وإني على مـا نـابَ جـدُّ جليـد

فهو صابر على نوازل الدهر وغدر الأيام، لكنه صبر المتوثب المتحفّـز، وليس صبر العاجز، بل إن زوجته سليمى عجبت لأنه دائم الذود عن مبادئه، بل

[1] شعراء أمويون (١٠٢) الحيزوم: الصدر أو وسطه ويقال اشدُد للأمر حيازيمك: وطن نفسك عليه.

إن زوجته عجبت عندما رأته شاحب الوجه، ممزّق القمـيص، وقـد وشـمت الجراحات ساعديه بميسم البطولة[١]:

عجِبَتْ سُلْيَمى أنْ رأتنيَ شاحباً   خَلِقَ القميص، بساعديّ خُـدوشُ

إنه عندما يذكر المرأة لا يتغزل، ولا يشبب، ولا يتغنّى بمفاتنها، كما يفعـل غيره من الشعراء، ولكنه يسعى في قوة إلى طائفة من المثل الخلقية العليا، ولـم تكن قيمة تعنيه كالشرف، فهو كما أكد مرات عدة، يحافظ على حقوقـه، يـشد حيازيمه لكل كريهة، وهو في مواجهة الخطوب صابر، عنيد، مقـاوم. فحـبس زوجته اعتداء لا يشفيه من أعدائه إلا الغارة وسفك الدماء، وبذلك كانت المـرأة رمزاً موحياً من رموز الفارس، ومعادلاً موضوعياً للوطن والهدف.

الحكمة:

لم تكن الحكمة في أشعار ابن الحر غرضاً مـستقلاً بذاتـه، وإنمـا هـي خطرات عرض لها في أثناء شعره – على قلة- ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضـوع القصيدة الذي لا يخرج عن إطار الحب والحرب والبسالة والبطولة وما يتـصل بمعاني الحماسة. فإذا كان السجن مرتكز العبودية، والمكان الذي يحـول بـين الإنسان وحريته وطموحه، فإن شخصية ابن الحر التاريخية قد امتزجت امتزاجاً متداخلاً في شخصيته الأدبية، كما يقول الدكتور القيسي[٢]. فقد فُرضت الأحداث عليه فرضاً، فعاش يطويها بشجاعته ويجابهها بما يمكن من مـصادمة، وكـان منها قدرته الشعرية التي تميز بها، والملكة الإبداعية التي جعلته يتحكم برقـاب التعبيرات، فيفرض عليها حسه التاريخي، ونمطه الذاتي الذي اختطه في سلوكه العام، فاستطاع بحق أن يرسم في شعره صـورة واضـحة لحياتـه ونـضاله وبطولته. فبالإضافة إلى منظوره السياسي الواضح، فإن الحيـاة قـد عركتـه، وعجمته، فخرج ببعض النتائج التي صاغها في قالب الحكمة التي تمخضت عن ظروفه الخاصة ومسيرة حياته.

ذكرنا أنه يرفض الخوف ويأباه، ويؤمن بالقضاء والقدر إيماناً مطلقـاً، وأن الدنيا تضمر للإنسان الخير والشر معاً، لكن الخير لا يدوم، والأيام مداولة مـن الأمن والخوف والضَيم والحرية.. وهذه المعاني الإنسانية التي عبّر عنها شعراً،

---

[1] الاستدراك (٢٩٤) وفي أشعار اللصوص: لساعدي (١/ ٢٧٠).
[2] شعراء أمويون (٨٢)

توحي لنا بثاقب بصره الذي يرقب الواقع بعين العارف المدرك، فيعلم أسرار تقلب الدهر وكنه الحوادث، يقول[١]:

فلا تَحْسَبَنَّ الخيرَ لا شَرَّ بَعده ... ولا الشَرَّ سُرْجُوجاً على مَنْ تَرَتَّبَا

ولكنْ خَلِيطاً مِنْ نعيمٍ وشدّةٍ ... فإنْ يأتِ خيرٌ فاخْشَ شَرّاً مُعَقّباً

فالدهر يومان: يوم رخاء وسرور، يعيشه الإنسان بالغبطة والفرح والبهجة، ويوم شرّ أو شقاء وشدّة، تستولي فيه الأحزان على الإنسان فيعلوه الشحوب ويسيطر عليه الغم، وهكذا دواليك، فإذا ما عاش الإنسان في الخير فعليه أن يتوقع الشر، لأنه سيتلوه حتماً.

فعندما يرسف في أغلال السجن، يحن إلى الحرب، وقد أوحت حاله هذه بعظات وعبر جعلته يلوم نفسه لقدومه إلى مصعب الذي حبسه، فكان ضحية تصديقه وتسرعه[٢].

وقد كانَ في الأرض العريضة مَسْلَكٌ ... وأيُّ امرئ أعْيَتْ عليه مَذاهبُهْ

وفي الدَّهْرِ والأيامِ للمرء عِبْرَةٌ ... وفيما مَضَى إنْ نابَ يوماً نوائبه

دعاني إليه مُصْعَبٌ فأجبْتُهُ ... نهاري وليلي كلُّه أنا دائبه

ذلك لأن المجال واسع في الأرض، وما على الإنسان إلا أن يتخير طريقه بنفسه، بدقة وتبصر، فقد أحكمت التجارب خبراته، وحنكته الأيام بعد أن (حلَبَ) الدهر في شبابه وكهولته، حتى الرديء من أحواله[٣]:

حَلَبتُ خُلُوفَ الدَّهرِ كهلاً ويافعاً ... وجرَّبْتُ حتى أحْكَمَتْني التجارب

ففي هذا التعبير الاستعاري (حلبت..) يتعامل مع اللغة بفن معجب، ليؤكد أنّ فعله إرادي، أي أنه هو الذي يبادر فلا يجني منه إلا الشر أو الخير.

ولا يستعطف الشاعر مصعباً، كي يعفو عنه، مقدماً التوبة وطلب الصفح بين يديه، كما كان يفعل الصعاليك الآخرون، ولكنه كان يقيم الحجة عليه،

---

(1) نفسه (٩٧) السرجوج: الطبيعة أو الغريزة، معقباً: لاحقاً.

(2) شعراء أمويون (٣٩)

(3) نفسه (٩٦) الخلوف: جمع خلف وهو ضرع الناقة وكل ذات خف أو ظلف، وهو أيضاً حلمة الضرع وما يقع عليه كف الحالب منه، يريد أنه جرّب الدهر وخبره.

ويستنكر سياسته، ويهدده عن طريق تذكيره بأن الحياة يومان: يوم لــك ويــوم عليك[1]:

أقول لـــــهُ صَــبْراً عَطــيُّ فإنمــا	**هو السجن حتى يَجْعَلَ الله مَخْرَجَا**
أرى الدَّهْرَ لي يومين: يوماً مُطَرّداً	**شريداً ويوماً في الملــوكِ مُتوّجــا**
أتطعنُ فــي دينــي غــداةَ أتيــتكُمْ	**وللدين تُدني البــاهليّ وحَــشْرَجَا**
ألمْ تَرَ أنّ المُلْكَ قد شِــينَ وجْهُــهُ	**ونبعَ بلادِ الله قدْ صــارَ عَوْسَــجَا**

فالشاعر هنا يعزّي نفسه بالصبر، ذلك لأن الفرج من عند الله، وهو وحــده الذي يعلم بما في القلوب. أما الدهر الخاص بالشاعر فيتلخص في أنــه إمــا أن يكون مشرداً طريداً، أو أن يكون عظيماً متوجاً في الملوك، وتلك لعمري نزعــة الفارس الذي يبحث بالفعل والقول عن المعالي والسناء بإباء يدفعه إلى الهجــوم على سياسة آسرة، بدلاً من أن يتوسل إليه كي يطلق سراحه.

وإذا كان ابن الحر يستنكر على مصعب أن يطعن في دينه وهذا ظلم فادح في نظره فإنه في البيتين التاليين يؤكد إيمانه بالله وبقضائه وقدره، وهو معــوّل في النهاية على أن الله سوف يجعل له مخرجاً، ويفرّج همه وكربه[٢]:

لم يَجْعَلِ الله قلبي حينَ ينزل بي	**هَمٌّ تــضيقني ضَــيْقاً ولا حَرَجَــا**
ما أنْزَلَ الله بي أمــراً فأكرَهَــهُ	**إلاّ سيَجْعَلُ لي مِــنْ بعــدِهِ فَرَجَــا**

ويكرر ابن الحر هذا المعنى بقوله[٣]

والأمنُ والخــوفُ أيــامٌ مُدَاوَلَــةٌ	**بين الأنامِ وبعدَ الضيِّــق مُتّــسَعُ**

فلا بد من الرخاء بعد الشدة، وتلك طبائع الأشياء وسرجوج الحياة في كــل زمان ومكان. أما الرجل الكريم فهو الذي ينتفع بتجاربه ويفيد منها ويتعظ[٤]:

فحسبك قد جَرَّبْتَنــي وبلَــوْتَني	**وقد تنفع المرءَ الكريمَ التجــاربُ**

ومن هذه التجارب توصل الشاعر إلى حقائق عدة منها[١]:

---

(1) نفسه (٩٧-٩٨) عَطِيّ: منادى مرخم عطية ويعني: عطية بن عمرو البكري وكان قد حُبس معه فخرج عطية.

(2) شعراء أمويون (٩٨-٩٩)

(3) نفسه (١٠٨).

(4) الاستدراك (٢٩٧)، أشعار اللصوص وأخبارهم (١-٢٦٩)

**فابسط يديكَ فإنّ الخيرَ مُبْتَــدَرٌ		عَلْياءه، وجدود القــوم تــصطرع**

فالخيّر لا ينتجع إلا العلا ولا يهدف إلا إلى المجد. والرجل الماجد الكــريم لا يرد الماء إلا صافياً، حتى لو ضُرب بالسوط أو السيف، لأن كل أمر مكتوب ومقدّر من الله سبحانه وتعالى[٢]:

**وما أنــا إنْ حَلأتمــوني بــوارد		على كَدَرٍ قد غَصّ بالصّفوِ شاربه**

**وما لامرئٍ إلا الــذي الله ســائقٌ		إليه وما قد خَطّ في الزُّبْــرِ كاتبُــه**

وإذا لم يكن تقدم السن واعظاً للمرء، فإنــه ســيكون مــذموماً مــدحوراً، مكروهاً من قبل الناس[٣]:

**إذا ما رأيتَ السِّنّ لا تَعــظِ امــرأً		قديماً وقدْ قاسى الأمــورَ وجرّبــا**

**فدعْهُ وما استهوى عليــه فإنّــهُ		ضَعِيفٌ ونَكّبْ عنهُ كيــفَ تنكّبَــا**

فالشاعر يدعو إلى تحكيم الدهر الإنسانَ بالتجارب والعظة، وإلا فيجــب أن يُعتزل ويعذل ويقبل الناس نحو غيره.

وإذا كان الفقر يسبب لبعض الناس الشعور بالمهانة، فــإن الغنــي يكــسب صاحبه السؤدد والمجد، وبالطريقة التي سار عليها بعدئذ المتنبي في تقديم أبياته التي سارت مسير الشمس فأصبح الدهر لها منشداً، يقدم ابن الحــر (برنامجــه) السياسي والأخلاقي، فالذي يوصلك إلى آمالك لــيس ســوى الــسيف والــرمح والفرس القوي السريع، وإذا لم تركب الأهوال فإنك لا تكسب المال والحمد مما يكفي الصديق ويزيد عنه. وإذا لاقى الشاعر الفارس نظيرٌ مكافئ له وقــد مــلّ حياته، فاستهان بها، فليس يبالي من تكون منيته أولاً[٤]:

**ألمْ ترَ أنّ الفقرَ يُــزْري بأهْلــهِ		وأنّ الغنى فيــه العُلــى والتجمُّــلُ**

**إذا كنتَ ذا رُمْحٍ وسيفٍ مُصَمّمٍ		على ســابح أدنــاكَ ممــا تؤمِّــلُ**

---

[1] الاستدراك (٢٩٧).

[2] شعراء أمويون (٩٥) حلأتموني: ضربتموني.

[3] نفسه (٩٦-٩٧) تنكب عنه: تجنبه واعتزله وأقبل نحو غيره. وأراد بالسّنّ: الرجل القوي في العقل والعلم.

[4] نفسه (١١١) وأشعار اللصوص (٢٧٧/١)

وإنّكَ إلا تركب الهـــولَ لا تَنَـــل   من المال ما يكفي الصديقَ ويفضُلُ

إذا القِرْنُ لاقاني ومَـــلّ حياتَـــهُ   فَلَـــسْتُ أُبـــالي: أينـــا مـــات أوَّلُ

أما جوهر هذه التجارب ومعينها، فإنما هو الحياة، ذلــك لأن العـــادة هـــي أساس السلوك[1]:

وكلُّ امرئٍ جارٍ على ما تعودا

وهكذا يبدو لنا ابن الحر، فارساً بطلاً حكيماً، يخاطب نفسه ليعـــزز فيهـــا القوة، وليحثها على طلب العلا والتجمل، والوصول إلى الهدف بطعن الرمـــاح، وضرب السيوف، وركوب الأهوال على الفرس السابح، وتلك نظـــرات أشـــبه بالبيان الثوري يطلقه رجل ثاقب النظر، مجرّب، حكيم، مدرك لأســـرار الحيـــاة وتقلباتها.

الهجاء والوعيد:

ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، أن الشعر يرتبط بالحياة عند ابـــن الحر، لأن فنه الشعري صدى واقعي لحياته، وتعبير حي عن مسيرتها، وربمـــا لا تصدُق هذه المقولة على شعر كثير من الشعراء، لأن الفن عموماً متميز مـــن الواقع، إلا أننا في دراستنا لشعر ابن الحر وصلنا إلى تلك النتيجـــة، وهـــي أن شعره تعبير عن شخصيته وظروف حياته وبيئته. ففي حديثنا عن طبيعة الحيـــاة العامة في العصر الأموي، تبينا كيف كان الشعر يقف من أحوال الحياة مواقـــف يؤثر فيها ويتأثر، هذا عن الشعر عامة، فكيف الحال في فـــن الهجـــاء إذا كـــان دافعه الثورة على السلطة والظلم والسجن. فابن الحر فـــارس إذا مـــا جرحـــت كرامته اهتاج فأسرع إلى السيف واحتكم إليه، وبادر إلى اللسان فسلّطه بـــشعره الذي تتحد فيه معاني الحماسة بالهجاء اللاذع، حين يصور خـــصمه مهزومـــاً، ضعيفاً منكسراً، أو كذاباً، جباناً، مارقاً.. وليست هذه الصفات مجـــرد وســـيلة للخوض في هذا الفن، ذلك لأن شاعرنا لم يتخذ الشعر حرفة أو صنعة، وإنمـــا هو سلاح يشهره في وجه الخصم، مكملاً لدور السيف والرمح والفرس. ومـــن هنا كان شعر ابن الحر لهيباً من البطولة، تمـــوج فيـــه قـــيم النخـــوة والإقـــدام والصدق، وكان صورة لحقيقة قلبـــه، ورؤاه الـــسياسية والحربيـــة، وســـلوكه الشخصي مع جماعته الصادقين المطيعين، خصوصاً أنـــه وجـــد فـــي مرحلـــة

---

[1] شعراء أمويون (١٠١).

تاريخية حاسمة، ساد فيها صراع القوى والأفكار علـــى المـــستويات الـــسياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية والعقدية.

وهنا لن نعيد الحديث عن هجائه ابن زياد، لأن ذلك ممتزج برثائه الإمـــام الحسين رضوان الله عليه، ومرتبط بتقريعه نفسه التي خذلت حفيــد رســـول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ يبكي دماً، ويعاني من آلام سياط النفس، ويتألم نتيجة الندم والحسرة. وقد كان هذا موضوع حديثنا في الفصل الأول، أما هنا فـــسوف نتناول هجاءه مصعب بن الزبير والمختار الثقفي.

١-هجاؤه مصعب بن الزبير:

أكد المؤرخون أن ابن الحر كان سليم النية في علاقاته مـــع عبـــد الله بـــن الزبير إلا أن صلاته بأخيه مصعب كانت بين مدّ وجزر، فبعد أن كان الـــشاعر معه، تغيّر موقف مصعب منه بعد القضاء على حركة المختار الثقفي، وبعـــد أن أُعلم مصعب أن ابن الحر غير مأمون فهو سيصنع في سلطانه ما كان يـــصنع في سلطان من كان قبله، ويفسد عليه.. فلم يزل مصعب يتلطف له، حتـــى أتـــاه فأمر بحبسه. وقد أشار ابن الحر إلى هـــذه الخديعـــة والوشـــاية فـــي هجائـــه مصعباً[١]. وبعد أن شفع للشاعر الأحنف بن قيس أطلقه مصعب وأكرمه، إلا أن موقفه من الأمير أخذ يشتد بعد خروجه من السجن، فأبى مبايعته، لأنـــه ملتـــزم بموقفه السياسي المعلن: إنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وأنه لـــم يـــر بعد الخلفاء الراشدين إماماً صالحاً، ولا وزيراً تقياً، وهو وصحبه يلقون الأســـنة بنحورهم، والسيوف بجباههم، ثم لا يُعرف لهم حق وفضل، ولا بـــد أن يقـــاتلوا دفاعاً عن الحريم والأرض والهدف[٢].

وظل ابن الحر يقاتل جيوش مصعب بلا هوادة ويتوعده ويهـــدده بزيـــارة الخيل له، ليفتكوا به، ويمحقوا ملكه، ويذكره بالندم الذي سيلحق بـــه، وأخيـــراً يبايع ابن الحر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مراغمـــة لمـــصعب. وقـــد حاول مصعب مراراً أن يقضي على ابن الحر وجماعته، إلا أن هذه المحاولات كانت تنتهي إلى الهزيمة أو الإخفاق نظراً لشدة ابن الحر وقدرته وجماعته على مجابهة كل خصم، لكنّ نهاية هذا الشاعر البطل كانت علـــى يـــد جـــيش ابـــن

---

[1] انظر الطبري (٦/١٣٠) وما بعدها
[2] ينظر الطبري (٦/١٣٢)

الزبير[١]، فقد فضل أن يكون طعاماً للأسماك، وليس شاهداً على نصر مصعب، أو طعاماً للطير المصاحب لجيش ابن الزبير.

ويصوّر ابن الحر الحال الذي آلت إليها السياسة في عصره، موجهاً الحديث إلى مصعب الذي حبسه وعذّبه[٢]:

ألم تَرَ أنَّ المُلْكَ قد شِيْنَ وَجْهُهُ ... ونَبْعُ بلادِ اللهِ قد صارَ عَوْسَجَا

لقد شوّه مصعب صورة الخلافة، فكل شيء تغيّر في عصره، حتى الماء غار وأصبح ضحلاً شحيحاً، ولا يكتفي بهذا الهجاء العام، وإنما يتوعده ويهدده بشن غارة يهزمه فيها، وإن لم يفعل ذلك فسوف يتحول إلى حدّاد[٣].

فإنْ أنَا لم أُزرِكَ الخيلَ شُعْثاً ... شوازِبَ ضُمّراً فَدُعيْتُ قَيْنَا

وتلك ثقة عالية بالنفس، فهو في أعماق نفسه كما سنبين يحتقر الثقفي، ولا يعامل مصعباً بالشعور نفسه، ولكنه يحترمه في قرارة نفسه، إلا أنه لا يمكن أن يرقى إلى منزلة الحسين رضي الله عنه، وقد خذله الشاعر فلم ينصره، فهل يُعقل أن يقاتل ابن الحر عبد الملك وأهل الشام:

أيرجو ابنُ الزُّبيْرِ اليومَ نَصْرِي ... لعاقبةٍ ولم أَنْصُرْ حُسَيَنا

ويوجه ابن الحر حديثاً مباشراً إلى مصعب، وهو في ظلمات السجن، يوضح فيه موقفه منه، إذ لن تظلهما الشمس معاً بعد الآن، وتلك قطيعة أزلية وفراق لا لقاء بعده، إلا في أرض المعركة والمواجهة حيث الرماح والقنابل والطعن والضرب[٤]:

وما كنت أخْشى أن أُراني مُقيّداً ... على غير جُرْمٍ وسط بكر بن وائل

وأَلْفَيْتَني يا بنَ الزبير كأنّما ... رُميْتُ بسَهْمٍ مِنْ سِهامِكَ ناصِلِ

فإنْ أَنْفَلِتْ لا تجمعِ الشمسُ بيننا ... ولا الليلُ إلا في القَنَا والقنابلِ

---

[١] ابن خلدون (١٤٩/٣)

[٢] شعراء أمويون (٩٨)

[٣] نفسه (١١٧) كانت العرب تحتقر أصحاب المهن ومنها الحداد وقد ورد ذلك كثيراً في نقائض جرير والفرزدق والأخطل. والقين: العبد أيضاً.

[٤] شعراء أمويون (١١١-١١٢) ناصل من نصَلَ السهم: جعل فيه نصلاً والسهم الناصل: الخارج من نصله.

ولا يكتفي الشاعر بهجاء مصعب، بل يهجو قبيلته قيس عيلان، بقوله[1]:

أنا ابنُ أبي قيْسٍ فإنْ كنتَ سـائلاً	**بقيسٍ تَجِـدْهُمْ ذُروَةً فـي القبائـلِ**
ألمْ ترَ قيساً قيسَ عيلانَ برقَعـتْ	**لحَاهـا وباعـتْ نبْلَهـا بالمغـازل**
وما زلْتُ أرجو الأزدَ حتى رأيتُها	**تُقـصِّرُ عـن بُنْيانهـا المتطـاولِ**
أيُقْتَلُ مَسْعُودٌ ولـم يثـأروا بـه	**وصارتْ سُيوفُ الأزْدِ مثلَ المناجل**
وما خيرُ عَقـلٍ أورث الأزْدَ ذلّـةً	**تُسبُّ لـه أحياؤهُمْ فـي المحافـلِ**
على أنهـمْ شُـمْطٌ كـأن لِحَـاهُمُ	**لِحَاءُ تُيوسٍ حُلِّئَـتْ عـن مناهـلِ**

فالشاعر هنا يمهد للهجاء بالفخر بنفسه وحسبه ونسبه فهو من ذروة القبائل، أما قبيلة مصعب الأزدية فهي خاملة عاجزة، لا همّ لرجالها إلا التلهي بصبغ لحاهم، وقد هجروا النبل وابتاعوا المغازل بديلاً لها وهذا من عمل النساء. والأزد مقصّرون عن اللحاق بالمجد، بل هم قوم ماتت في ضمائرهم النخوة، إذْ ناموا على مقتل أحد ساداتهم دون أن يثأروا له، لأن سيوفهم قد تحولت إلى مناجل لحصاد القمح، كناية عن وضاعة المهنة، وحقارة المستوى الاجتماعي والمهني. فقوم مصعب أذلاء، ليس لهم ماضٍ عريق ولا حاضر مجيد، إنهم مذمومون، مشتومون دائماً في كل مقام، فرجالهم موضع فخرهم عجزة شمط، كالتيوس الهرمة تطرد عن أماكن الشرب. وتلك معان مستمدة من طبيعة الهجاء القبلي، حيث يحاول الشاعر أن يعيّر المهجو بمخازيه في الماضي والحاضر، هذا إلى جانب أسلوب مسخ الشخصية وتحقيرها ضمن معايير مستمدة من قاموس المعارك والشجاعة والفخار، وقيم الحياة البدوية.

وفي الأبيات التالية يخاطب الشاعر مصعب بن الزبير، ويهدده بالجيش الذي سينقضّ عليه ليزعزع ملكه، ويقضي عليه[2]:

---

(1) شعراء أمويون (١١٢-١١٣) ومسعود المذكور في البيت (٤) هو مسعود بن عمرو الأزدي وكان يدعى القمر لجماله، أجار ابن زياد ومنعه فمكث ابن زياد بالبصرة أربعين ليلة بعد موت يزيد ثم خرج إلى الشاعر واستخلف مسعوداً على البصرة. قتله علج فارسي يقال له مسلم حينما كان على المنبر يبايع من أتاه. حلئت عن مناهل: طردت عن مورد الماء.

(2) الاستدراك (٢٩٥-٢٩٦) العَقوة: الموضع المتسع أمام الدار أو حولها. غبرا: مغبّرة، يعلوها تراب المعركة. وقدماً من أسماء الزمان بمعنى القديم ورجحنا رواية أشعار اللصوص (٢٦٥/١) لأنها أكثر دقة من الاستدراك.

متى تسألوني ما عليَّ وتمنعوا الـــ ذي ليَ لم أسْطِعْ على ذلكمْ صَـــبْرا

أُهانُ وأُقْصَى ثَمّ تُرجَـى نـصيحتي وأيُّ امرئ يؤتي نصيحَتَه قَـسْرا؟

رأيـتُ أكـفَّ المُفْـضِلين لـديكمُ مِلاءً، وكفّي من عطـائكمُ صـفْرا

وقِدْماً كَفَفْتُ النَّفسَ عمـا يـريبُكم ولو شئتُ قد أَغْنَيْتُ في حربكم قَدْرا

ولو شئُتُ قد سارت إلـيكم كتائـبٌ رآها مِراعاً نحـو عَقْـوَتِكُمْ غُبْـرا

عليها رجالٌ لا يخافون في الـوَغى سهامَ المنايـا والرُّدينيـةَ الـسّمرا

إنه يرفض أن تهضم حقوقه، أو يُكتفى بطلب ما عليه فقط، فهو لا يطيـق صبراً، فهل يُعقل أن يُهان ويُبْعد، وفي الوقت نفسه تطلب منه النـصيحة، إنـه رجل يفرض رأيه قسراً. فقد أحزنه وأضناه أن يرى المقرّبين من قبل مـصعب يحظون بكل شيء، أما الشاعر فلا ينال شيئاً، ثم يذكّره بمواقفـه المؤيـدة لـه سابقاً، إذْ كان صديقاً موالياً مخلصاً، يقمع نفسه عندما تأمره أن يزعج مـصعباً، وكان قادراً على شن حرب تزعجه وتزيد في حـرارة نـار حـروب أعـداء مصعب. فلو شاء الشاعر لأرسل إليه جيشاً يحيل الـسكون إلـى اضـطراب، ويجعل عقر دار المهجو أثراً بعد عين، لكثرة غبار الحرب الذي يلف المكـان، هذا الجيش يضم رجالاً أشداء، لا يخشون الموت ولا ترهبهم الحرب، ولا سهام الموت، ولا الرماح المثقفة القاتلة، فهم أقوى من الموت ورهبته وأدواته.

وفي القصيدة التالية يهجو الشاعر مصعباً، ويتوعـده، ويـرفض دعوتـه للعودة إليه حتى بالغ الأمير في إغرائه، وأعفاه من خراج فارس وأرض العراق وقرى الجبل، لأنه قرر أن يواجهه بفرسان صِدْقٍ صامدين، منتصرين بعزيمتهم وشجاعتهم[1]:

وبالقصر قد جَرَّبتموني فلـمْ أجِـمْ ولـم أَكُ وَقّافـاً ولا طائـشاً فَـشَلْ

وبارزتُ أقوامـاً بقـصر مُقاتـل وضَاربتُ أبطالاً ونازلتُ مَـنْ نَـزَلْ

فلا كوفةٌ أمـى ولا بَـصْرةٌ أبـىْ ولا أنا يَثْنينى عن الرحلـةِ الكـسلْ

---

[1] الاستدراك (٢٩٨) وشعراء أمويون (١١٤-١١٥) لك الهبل: لك الثّكل أي الهلاك والحزن، قب: جمع مفردها أقبُّ وهو الفحل من الخيل الذي دقّ خصره وضمر بطنه، البيض: السيوف، والأسل: الرماح.

فلا تْحسبَنّي ابنَ الزُّبيـر كنـاعسٍ — إذا حَلّ أغفى أو يُقال لـه ارتحـلْ

فإنْ لم أُزرِك الخيلَ تَرْدي عَوابساً — بفُرسـانها لا أُدْعَ بالحـازم البَطـلْ

وإنْ لم ترَ الغاراتِ من كُلّ جانـبٍ — عليك فتَنْـدَمْ عـاجلاً أيهـا الرجـلْ

فلا وضعتْ عندي حَصَانٌ قِنَاعَهَـا — ولا عـشتُ إلا بالأمـانيّ والعِلَـلْ

فإنك لو أعطيتـي خَـرْجَ فـارسٍ — وأرضَ سوادٍ كلّهـا وقـرى الجبـل

وجَدّكَ لم أقْبَـلْ ولـم آتِ خُطّـةً — تَسُرُّك فأْيَسْ من رجوعي، لك الهبَل

بل الدهر أو تأتيكَ خيلٌ عـوابسٌ — شوازبُ قُبّ تحمل البـيْضَ والأَسَـلْ

بفتيان صـدقٍ لا ضـغائن بيـنهم — يواسون من أقوى ويُعْطونَ منْ سأل

ألم يأتكم يـوم العُـذَيبِ تُجالُـدي — به شيعة المختار بالمفْـصَلِ الأقـل

فهو يرفض أن يكون له وطن بعينه، لأنه دائم الرحلة في دروب المجد، إذ لا يمكن أن تكون الإقامة في الكوفة والبصرة بديلاً للحركة والفعـل الثـوري، لذلك لن يكون خاملاً ناعساً مطواعاً يؤمر فينفذ. ويهدد ابن الزبير إذا لـم يقـم بغزوه على خيل عوابس يمتطيها فرسان شجعان لن يـدعى بالحـازم البطـل. سوف يغير على مصعب من كل جانب حتى يقر بالخيبة والندم علـى إسـاءاته للشاعر، وإلا فلن يكون حامي العرض والشرف، ووزْراً للـذين يحتمـون بـه، وموضع رجاء الأهل، فهو يرفض أن يتعلل بالأماني والآمال والأعذار، فحتـى لو منحه مصعب أعظم الملك، فإنه سيرفض ذلك، ولن يعمل ما يرضي مصعباً أو يسرّه، فما عليه إلا أن يسلّم بأن رجوع الشاعر إليه صديقاً مخلـصاً، عبـث ووهم، فلن يكون رده إلا بالخيل الشديدة الـسريعة الـضامرة، التـي يمتطـي صهواتها فرسان أبطال، عدتهم السيوف والرماح، يسود بينهم الحـب ومواسـاة الضعيف، ثم يذكره بالأيام التي انتصر فيها على المختار وعلى مصعب نفـسه حين انتزع النصر بحنكته وشجاعته.

لقد بارز أقواماً، وضارب فرساناً ونازل من نازل وكان النصر حليفه فـي يوم العذيب وقصر مقاتل، فلم يقف متفرجاً ولا طائشاً متهوراً. ذاك ما كان بـين الشاعر وبين مصعب بن الزبير.

٢-هجاؤه المختار الثقفي:

ذكرنا أن المختار لم يقم بحركته بغية إعادة الملك إلى آل أبي طالب، ولكن استجابةً لطموح شخصي، وميل إلى الزعامة في زمن شهد هــذا النــوع مــن الصراع، فقد قال الثقفي "إنما أنا رجل من العرب، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلــم أكــن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم، إلا أني قد طلبتُ بثــأر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، إذ نامت عنه العرب، فقتلتُ مَنْ شرك فــي دمائهم، وبالغتُ في ذلك إلى يومي هذا..[١]"، أما ابن الحر فقد أبى أن يبايعه[٢]. وبعد مأساة كربلاء، وموقفه من الأمويين، اتضح موقفه من المختار الذي حاول أن يطلبه، فأتاه ابن الحر وبايعه تحذيراً، وكان المختار يريد أن يستغله للــبطش بأعدائه، إلا أن ابن الحر كان ينظر إلى المختار على أنه متسلق إلــى الــسلطة، كذاب، طامع في الملك بحجة إعادة الحق إلى أصحابه، وهــو منــافق، فكــان يحتقره، ومن هنا أخذ يعبث بنواحي المختار، ويغير علــى الأنبــار ثــم علــى كَسْكَر، فهدم المختار داره وحبس امرأته، ثم سار الشاعر وصحبه إليــه حتــى المدائن ثم الكوفة حيث استطاع تحرير زوجته وكل امرأة في الحــبس، وظــل يزعج المختار حتى مقتله سنة (٦٧) هــ على يد مصعب، وكان ابن الحر مــع جيش مصعب[٣].

وتجلى موقفه العملي الصريح من المختار في الغزوات التي شــنها عليــه فأزعجه وهدد ملكه، وفنياً من خلال شعره الذي هجاه به، فأسقطه ورســم لــه صورة في الأذهان خالدة، يبدو فيها رجلاً دجــالاً، انتهازيــاً، حتــى أن صــفة الكذّاب كانت ملابسة له[٤]:

لقد زعم الكذّابُ أنّي وصُــحْبتي — بِمَسْكنَ قد أعيــتْ علــيّ مــذاهبُ

فكيف وتحتي أعوجيٌّ وصُحبتي — على كل صِهْميمِ الثميلــة شــاربُ

---

[1] الطبري (١٠٧/٦)

[2] الكامل (٢٨٩/٤).

[3] الطبري (١٠٧/٦).

[4] شعراء أمويون (٩٦) أعوجي: صفة للفرس والخيل تنسب إلى أعوج: حصان لبني هلال. صهميم: العسر، لا ينثني عما يريد. وقد أثبتنا رواية صاحب أشعار اللصوص (٢٥٤/١) لأنها أصح. ومسكن: موضع على دُجيْل كانت فيه الوقعة بين عبد الملك ومصعب. معجم البلدان (١٢٧٦/) وهو بكسر الكاف.

إذا ما غَشِيْنا بلدةً قرّبــت بنــا طوالُ متونٍ مــشرفاتُ الحواجــبُ

ويبدأ قصيدته التي بلغت ستةً وعشرين بيتاً بقوله[١]:

وما تَرَك الكذّابُ مِــنْ جُــلّ مالِنَــا ولا الزُّرْقُ مِنْ هَمْدان غيرَ شريدِ

أفي الحقِّ أن يَنْهبْ ضياعي شاكر وتأمنَ عندي ضَيْعةُ ابنِ ســعيد..

وفي البيتين التاليين يخاطب الشاعر أحد قادة المختار بعــد أن شــدّ عليــه الشاعر فصرعه، يذكّره بأنه قد ذعر المختار –سيده- وشــرد جمــوع جيــشه، وقاتله عندما خضع الناس له[٢]:

سائل بيَ المختارَ كم قــدْ ذَعرْتُــه وشَرّدْتُ أطرافاً لــــه وجُموعــا

وقاتلتُه والناسُ قد أذعنــوا لــــه وقد أقَشَعَ الأحياءُ عنــه جميعــا

وإشادة الشاعر بانتصاراته على المختار هجاءٌ له، وتذكير بهزائمه، يقــول متحدثاً عن قادة المختار الذين لقيهم في الكوفة[٣]:

وقِدْماً أبينــا أن نُقــرَّ ظُلامــةً وقِدْماً رتَقْنا كلّ فَتْــقٍ مــن الأمــرِ

وكم من أبيٍّ قد ســلبناه وَفْــرَهُ بأسيافنا حتى أقــام علــى العُــسرِ

بضرب يزيل الهامَ عن سَــكَناتِه وطَعْنٍ بــأطراف المثقّفــة الــسُّمْرِ

ومن شيعة المختار قبلُ سَقَيْتُها بضَربٍ على هاماتهم مُبْطِلِ السِّحْرِ

فالمجد موروث خالد في الشاعر وصحبه، لأنهم يأبون الظلــم ويخرجــون على كل ظالم جائر، فكم من غطريف سلبوه ما يملك بحدّ الــسيف حتــى عــاد معسراً بعد أن كان ميسور الحال، إنهم يضربون رؤوس الأعداء فيطيحون بها، ويطعنون بالرماح المصقولة، ثم يعود ليذكر المختار وشيعته، ليؤكد أنه ســقاهم كؤوس المنون، فأبطل سحرهم وشعوذتهم وبهتانهم.

---

(1) نفسه (١٠٢).

(2) نفسه (١٠٨) أقشع الأحياء: تصدعوا وتفرقوا ورواية (أشعار اللصوص): أفي الحق أن يحتاج..

(3) الاستدراك (٢٩٨) وأشعار اللصوص (٢٦٦/١) والفتق: الخلاف بين الجماعة وتصدّع الكلمة. الوَفْر: المال والغنى.

العتاب والاعتذار:

ذكرنا سابقاً أن علاقة ابن الحر بمصعب كانت قائمة على الشك والريبة والحذر من موقف أحدهما تجاه الآخر، ولذلك ظلت ما بين مَدٍّ وجَزْر. أما الشعر الذي يحمل معاني العتاب والاعتذار فهو الذي قاله ابن الحر بعد أن استدرجه مصعب وأمر بحبسه، إثر ذلك بدأت الشفاعات والاعتذار والعتاب، وتأنيب ابن الحر الذي خُدع، بعد أن أخلص لمصعب وعامله بودّ وصدق.

ففي قصيدته التي بلغت تسعة عشر بيتاً، يستهل حديثه بصرخة نسر جريح داخل القفص[1]:

فَمَنْ مُبْلِغُ الفتيانِ أنَّ أخاهُمُ ... أتَى دونَه بابٌ منيعٌ وحاجبه

بمنزلةٍ ما كان يرضى بمثلها ... إذا قام عَنَّتْه كُبُولٌ تجاذبه

وما ذاكَ من جُرْمٍ أكونُ اجترمْتُه ... ولكنْ سعى الساعي بما هو كاذبه

وقد كان في الأرض العريضة مَسْلك ... وأيُّ امرئٍ ضاقَتْ عليه مذاهبه

ثم يوجه الحديث إلى مصعب بعد أن يعترف بأن ظروف الدهر وقسوة الأيام قد أكسبته العبرة والعظة:

دعاني إليه مصعبٌ فأجبْتُهُ ... نهاري وليلي كلُّه أنا دائبه

أروحُ وأغدو دائماً وكأنَّما ... أبادرُ غُنْماً في الحياة أُناهِبُه

فكان حِبائي إذْ أُنِخْتُ ببابه ... حُجُولٌ وأَحراسٌ وصعبٌ مراتِبُه

ويدافع الشاعر عن نفسه، فيؤكد أنه كان دائم الود للزبيريين، مؤيداً لهم، ملتزماً بهم، بل هو الذي يدافع عنهم ويناضل إذا ما هاجمهم أحد:

فإنّي لم أنكُثْ لهم عَهْدَ بَيْعَةٍ ... ولم آتِ أمراً مُحْدَثاً أنا راهِبُهْ

فإني لكمْ مثلي يُذَبّبُ عنكُمُ ... إذا الصَّفُّ دارت للقِراع كتائبُهُ

ويذكّر الشاعر الأمير بأنه من قوم سيخلّدون بطولاته، إذا ما حاول مصعب أن يتناسى ذلك:

---

[1] شعراء أمويون (٩٣) الحباء: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به. الحجول: القيود. يذبب: يدفع ويمنع.

وإني من قـوم سـيُذْكَرُ فـيهِمُ ... بلائي إذا ما غَصَّ بالماء شاربه

ثم يعاتبه عتاب الأصدقاء، فهل قصَّر الشاعر يوماً في نجـدة الزبيـريين، وهل آثر الراحة والكسل فلم يَدْعُ فرسانه في ظلمة الليل لخوض المعارك نصرة لمصعب:

كأنَّ عبيدَ الله لم يُمْـسِ ليلـةً ... مُوَطَّنَةً تَحـتَ الـسُّروجِ جنائبـهْ

ولم يَدْعُ فتياناً كـأن وجـوهَهُم ... مصابيحُ في داجٍ تَوارتْ كَواكِبـهْ

ثم يقسم بأن حاله هذا في سجن مصعب كالسيف الكهام الذي لا يقطع، بعد أن زرع في قلب المختار الثقفي –عدو مصعب- الرعب والحزن، لكثـرة مـا أغار عليه بالخيل والفرسان، فبَدّد شمله واقتحم حصونه، فهل يشفع لابن الحـر هذا الصنيع؟.

لعَمْرُكَ إنِّي بَعدَ عهدِي ونُصْرَتي ... لكالسَّيْفِ فُلَّتْ بعد حَـدٍّ مـضاربُه

وقد عَلِمَ المختارُ أني لهُ شَـجَىً ... إذا صَدَّ عنه كُـلُّ قِـرْنٍ يُكالِبُـه

أَكُرُّ عليهِ الخيلَ تَدمَى نُحُورُهـا ... أُطاعِنُهُ طَوْراً وطَـوْراً أُضـارِبُهْ

فكم مِنْ صَرِيعٍ قد تركتُ بِمَعْـزِلٍ ... عُكوفـاً عليـهِ طيـرُه وثعالبُـهْ

وحِصْنٍ منيع قدْ صَبَحْتُ بغـارَةٍ ... وأهل نَعيمٍ يضْرِبُ الطبـلَ لاعبُـهْ

وفي الأبيات التالية التي أرسلها ابن الحر إلى عبد الله بن الزبيـر، يعاتـب أخاه لأنه يهمله ويقدم عليه أهل البصرة، ويخوفه مسيره إلى عبد الملك وخذلان الزبيريين إلى الأبد[1]:

أبلـغْ أميـرَ المـؤمنين نـصيحتي ... فلستُ علـى رأيٍ قبـيحٍ أُواربُـهْ

أفي الحقّ أنْ أُجْفَى ويَجْعَلَ مُصعبٌ ... وزيراً له مَنْ كنـتُ فيـه أحارِبُـهْ

وأَبليـتُكُمْ مـا لا يُـضيِّعُ مثلُـهُ ... وآسيتُكُمْ والأمـرُ صَـعبٌ مراتبُـهْ

فلما استنارَ الملكُ وانقـادت العِـدا ... وأُدْرِكَ مِنْ مـالِ العـراق رغائبُـهْ

جفَا مُصْعَبٌ عنى ولو كـان غيـرُه ... لأصـبحَ فيمـا بيننـا لا أعاتِبُـهْ

---

(1) شعراء أمويون (٩٤-٩٥) رسائل الجاحظ (٢/ ٧٩) ابن الزبير (٤/ ٢٩٤) حماسة البحتري (١٢١)
أبلى في الأمر: اجتهد فيه، آسيتكم: آسى فلاناً بماله: أناله منه، أو جعله مساوياً له.

لقد رابني من مُصعبٍ أن مُـصعْباً ... أرى كلّ ذي غِشٍّ لنا هوَ صـاحبهُ

إذا قمتُ عند الباب أُدخِـلَ مُـسلمٌ ... ويمنُعني أن أدخُلَ البـابَ حاجِبُـهُ

فهو يبدأ القطعة بتلك النصيحة، الرسالة، يعلن أنه لن يوافقـه علـى رأي خاطئ أو قبيح؛ إذْ ليس من الحق أن يُبْعَدَ الشاعر ويقرّبَ مصعب وزيره الـذي كان الشاعر يحاربه نُصرةً لمصعب. فهذا ظلـم صـارخ يقـع علـى نـصير للزبيريين، بايعهم ويهضم حقه الآن، لقد وقف إلى جانبهم، ولما انتهى لهم الأمر جفاه مصعب، وهو صديقه، أمن الحق أن يُقَدَّم كل غشاش ويُؤَخَّر هذا الـصادق المؤيد؟ وهنا تثور في أعماق الشاعر مشاعر العزة والكبرياء فيؤكد أنـه مهمـا بالغوا في تعذيبه، فهو صامد لا يضعف، لأنه مؤمن بقضاء الله:

وما لامرئ إلا الذي اللهُ سائِقٌ ... إليه وما قد خطَّ في الزَّبْرِ كاتُبـه

فهل هذا صواب وحق، أن يقرّب من مصعب عدو الأمس، ويمنع الصديق، فإنْ صعب الأمر على أتباع مصعب، فإن ابن الحر لا تضيق دروبه ولا تسد مسالكه، فهو يقتحم المستحيل:

فإنْ يَعْيَ عَبَّـادٌ علـيَّ فـإنني ... أنا المرء لا تَعْيـا عليـه مذاهبُـه

فالأبيات كما يتضح لوحة شعرية مؤثرة عميقة، خطوطها الشعور بـالظلم والاعتداد بالنفس والثورة، والغضب، والعتاب الرقيق أو التهديد والوعيد. وتكاد هذه المعاني تتكرر في أغلب شعره الذي خصصه للعتاب والاعتذار. كمـا فـي الأبيات التالية التي يعاتب فيها مصعباً في تقديمه أهل البصرة، ويذكر له تقريبه سويد بن منجوف، وكان سويد خفيف اللحية[(١)]:

بـأيّ بـلاءٍ أمْ بأيَّـةِ نِعْمَـةٍ ... يُقـدَّمُ قبلـي مُـسلِمٌ والمُهلَّـبُ

ويُدعى ابنُ منجُوفٍ أمـامي كأنَّـه ... خَصِيٌّ أتى للمـاء والعَيـرُ يَـشْربُ

وشـيخُ تمـيمٍ كالثَّغامـةِ رأسُـهُ ... وغَـيْلانُ عنـا خـائفٌ مُترقِّـب

جَعلتُ قُصورَ الأزد ما بين مَنْـبِجٍ ... إلى الغاف من وادي عُمَانَ تُـصَوَّبُ

---

(1) شعراء أمويون (٩٥) مسلم والد قتيبة الباهلي، والمهلب هو بن أبي صفرة، الثّغام: شجرة بيضاء الزهر والثمر تنبت في قنة الجبل، إذا يبست اشتد بياضها. منبج هنا: موضع بناحية عُمان وكذلك الغاف وهو مكان شجر كثيف عظيم (الروض المعطار ٥٤٧) والعَيْر: ا لحمار.

بلادٌ نفى عنهـا العـدوَّ سُـيوفُنا   وصُفْرةُ عنها نـازحُ الـدار أجْنَـبُ

فما الذي كتب على الشاعر الشقاء فيمنع، وعلى غيره النعيم فيقدَّم؟ وهـل هذا أفضل منه مع أنه رجل منبوذ لا خير فيه، وكذلك شيخ تمـيم، ذو الـرأس الأبيض، وغيلان المذعور، وكعادته يربط بين العتاب والتذكير بأمجاده السابقة، فيذكِّر مصعباً بفعله المجيد في قصور الأزد وما حولها حيـث أعمـل الـشاعر السيف في الأعداء فنفاهم عن الأرض، والذي يُقدم الآن كان بعيـداً عـن أرض المعارك مطروداً مفرداً مقهوراً.

وفي القصيدة التالية يعاتب الشاعر مصعباً، ويبـدي فيهـا رقـة مـشاعر وعذوبة معنىً[1]:

تـذكرتُ قبـل اليـوم آيـةَ خَلَّـةٍ   أضَرَّتْ بحقي عندكم وَهْـوَ واجـبُ

وما في قَناتي مِنْ وُصـومٍ تعيبُهـا   ولا ذَمَّ رحلي فـيكُمُ مَـنْ أُصـاحِبُ

وتَعْلَـمُ إنْ كاتَمْتُـهُ النَّـاسَ أنَنـي   عليكَ، ولـم أظلـمْ بـذلك، عاتـب

وما أنا راضٍ بالذي غيـرُه الرضـا   فلا تَكْذِبَنْكَ ابـنَ الزُّبَيْـرِ الكـواذب

رأيتـكَ تُقْـصِيْني وتُـشْمِتُ شـانياً   كأنّي بما لـم أجتـرم لـك رائـبُ

وإن كانَ مِنْ عنـدي فبـيِّنْ فـإنني   لِصرمكمُ يـا بـن الزبيـر لهائـبُ

وإن كانَ منْ غيري فلا تُشْمِتِ العِدَى   بنا وتداركْ رَقْعَ مـا أنـت خـاربُ

وإنْ كانَ هذا الـصَّرْمُ منـك لِعِلَّـةٍ   فَصَرّحْ ولا تُخفِ الذي أنتَ راكـبُ

ففي كـل مِـصْرٍ قاسـطٌ تعلمونـه   حريص على سري إليـكَ وراهـب

أرى الحربَ قد دَرَّتْ عليـك وفِتْنَـةً   تَضرَّمُ في الحافاتِ منها المحاطـب

فحـسبُكَ قـد جرَّبْتنـى وبَلَـوْتَنِى   وقد ينفعُ المرءَ الكـريمَ التجـاربُ

---

[1] الاستدراك (٢٩٧) الخَلَّة: الخصلة والجمع خِصال. وصوم: جمع وصم وهو العيب. الشانئ: المعيب اجترم لهم: كَسَبَ الرائب من الأمور، ما ليس فيه شُبهة وكَدر. لصرمكم: لهجركم وقطيعتكم. قاسط: من الأضداد. قسط قِسطاً: عَدَل وقسط قسوطاً وقسْطاً: حاد وعدل عن الحق فهو قاسط. المغيب: زمان الغياب ومكانه. الجلائب: جمع جَلوبة وهي الإبل يُحمل عليها متاع القوم، ويعني كثرت حولي أعداد الأنصار والمؤيدين وعددهم. والأبيات في أشعار اللصوص وأخبارهم (م١/ ٢٥٠) وقد اعتمدنا هذه الرواية وفيها اختلاف عن رواية الاستدراك.

ألــم تعلمــوا أنّــي عــدوٌ عــدوّكم	**وَيَشْقَى بنا في حَرْبِكم مَنْ نُحــاربُ**
أناضل عنكمْ في المغيــب عــشيرتي	**وأمّــا بنفــسي دونكــم فأضــاربُ**
لكم بــاردُ الــدنيا ونَــشْقَى بحَرّهَــا	**إذا عَضَّتِ الهامَ السيوفُ القواضِبُ**
فَلَــسْنَا كِرَامــاً إنْ رضــينا بــذاكمُ	**ولم تتأهبْ فــي الحديــد الكتائــبُ**
ولــولا أميــرُ المــؤمنين وبَيْعَتِــي	**لقد كَثُرَتْ حولي عليــك الجلائــبُ**

اختلط الحق بالواجب عند مصعب، والشاعر ليس في موضع قَـدْح، إنــه كان مقرباً من الأمير إلى أن فعلت تلك الوشايات فعلها، فقلاه وقــرَّب الوشــاة والعائبين. وهنا يلجأ الشاعر إلى العتاب الرقيق بالمجادلة وبيان الحجة، فإذا كان مذنباً فليظهر مصعب الأمر، لأن الشاعر متهيِّب، بل حزين لإبعــاده. فأعــداؤه كثر، والمستفيدون من هذه الحال أكثر، ويكفي ابن الحر أن الأمير جربه سابقاً، فكان مثال النجدة والوفاء، فهو عدو عدوِّ الأمير، بل تنكر الشاعر لقبيلته ووقــف إلى جانب مصعب، عصاها طاعة له، فهل من الحق أو العدل أن يكون الــسلام والنعيم ورغد العيش للأمير وصحبه، وللشاعر وصحبه السجن والشقاء والظلم. لكن الشاعر الذي عودنا وفي المواقف كلها أن يكون حامي الحقيقــة والحــازم البطل يصعِّد من لهجة الخطاب بعد أن اضطربت نفسه بالثورة، فيوجه وعيــداً مبطناً قائلاً لن نكون كراماً إذا رضينا بموقفكم هذا، فنحن متأهبون لكل نــزال، إلا أنه يخفف من ثورته، ليذكر الأمير أنه لولا وقوفه ومبايعته لكثــرت جمــوع الطامعين بملك الزبيريين، لكن الشاعر يبقى وفيّاً.

وذكر المؤرخون أن قوم ابن الحر بعثوا إليه وهو في سجن مصعب: أننــا عزمنا على أن نسير إليه ونكلمه في أمرك، وقد أحببنــا أن يكــون معنــا أبــو النعمان إبراهيم بن الأشتر، فلا عليك أن تبعث إليه رسولاً، وتــسأله أن يركــب معنا، فإنه عظيم القدر عند الأمير، ولعله أن يستحي منه فيشفّعه فيــك. فكتــب عبيد الله بن الحر إلى ابن الأشتر، ثم أثبت في رقعته هذه الأبيات[1]:

---

[1] الاستدراك (٢٩٦-٢٩٧) وأشعار اللصوص (١/ ٢٧٢)، بان الأمرَ: أظهره وأوضحه، المنطق الشَّنع:ا لقبيح والكريه. تبادر القوم: أسرعوا، وتبادر القومُ الشيءَ ابتدروه. الغِب من كل شيء: عاقبته وآخره، جلّلت: عظّمت أو عممت، العرانين: الأنوف. النجع: مكان انتجاع القبيلة والجمع نُجوع. الطَّبَع: الصدأ. الكبل: القيد من أي شيء كان جمعه: أكبُل وكبول وأكبال والبيت الأول في أشعار اللصوص، إن الملامة... ولا تزيدك.

بانَ الملامـــةَ لا تُبْقـي ولا تَــدَعُ	ولا يزيــــدك إلاّ أنهــــا جَـــزَعُ
لم تُبْق معــذرةً ســعدٌ فأعــذرها	ولا مُرَادٌ وكانوا بـئسَ مـا صـنعوا
والحارثيونَ لم أرضَ الذي نطقوا	عند الأمير وشـرُّ المنطـق الـشَّنِعُ
تبـــادروا أنَّهـــم نــأتي أميــرَهم	وللمذلَّــة فــي أعنـــاقِهم خــضعوا
فقد وردْتُمْ فذوقوا غِبَّ مــصدرِكُمُ	لا يَهْـــنِكُمْ بعــــده رِيٌ ولا شَـــبَعُ
ماذا يقولون وابنُ الحُرِّ مُحْتَـبَسٌ	هَمَّتْ به مَـذحِجٌ والأنــفُ مجتــدعُ
قد جُلّتْ مَذْحِجٌ ما لـيس يغـسله	ماءُ الفرات لأنْ لــم تُــشْهَدِ النَّجــعُ
الضاربونَ مـن الأقـوام هــامَهُمُ	بحيث يُقْرَعُ عــن هاماتهــا الـصَّلَعُ
والطاعنون ولم تَـرْعَش أكفُّهُـم	إذا العوالي بأيــدي القــوم تُخْتَـرَعُ
شُــمُّ العــرانين ســاداتٌ كــأنهمُ	بِيْضُ السُّيوفِ التي لم يعلها الطَّبَــعُ
أرجو قيامَ أبي النعمان إذ رَهِبُـوا	ومثلُــهُ بجــسيم الأمــر يَــضْطلعُ
فإن يُفــكّ عبيــدُ الله مــن كَبَــلٍ	فليس بعــدَك فــي إخراجــه طَمــعُ
فاجْهد فِدَىً لــك الأقــوام كلُّهــم	ما بعدَها عَنْ مساعي الخير متَّبــعُ[1]
فابسط يديك فإن الخيــرَ مُبْتَــدِرٌ	عليـــاءَه وجـــدودُ القـــوم تــصطرعُ
قد قُــدّمَتْ لــك مَــسْعاةٌ ومــأثرةٌ	من مالــكٍ وكــذاك الخيــر منتجــعُ
والأمن والخـــوف أيــامٌ مداولَــةٌ	بين الرجاءِ وبــين الــضّيْق متَّــسَعُ

فهو يستهل القصيدة بالحديث عن سياط اللوم والعتاب التـي تـؤدي إلـى الخوف، ثم يذكر الوشاة وظلام السجن، وبطـولات قومـه وأيـامهم، ويوجـه الخطاب إلى ابن الأشتر مؤملاً وساطته لفك قيوده، فهو رجل المهمات الصعبة، وهو البدر الذي افتقد في الليلة الظلماء، ويطلب إلى أبي النعمان أن يبذل جهـده ويقوم بمساعيه الخيّرة، فالخير مبتغى كل كريم عظيم، والـشاعر الـذي يفديـه بنفسه يذكره بأنه عزيز قوم ذل، فهو صاحب مآثر أيضاً لكـن طبيعـة الحيـاة

(1) البيت مضطرب الوزن ولا يصلح إلا بـ "فاجهد فداءٌ لك..".

هكذا، فالدنيا يوم لك ويوم عليك، والإنسان وتر مشدود بين الشدة والفرج، بين الضيق والرخاء.

وكذلك كانت حياة ابن الحر التي خلّد سلوكها ووقائعها شعره الذي كان ألحاناً شجية تغني معاني الحسرة والندم والبطولة والانتصار، كما كانت حياته متأرجحةً ما بين المد والجزر، والولاء والرفض، الانتصار والهزيمة، الحرية والسجن، التهديد والاعتذار، تبينا ذلك من خلال رثائه الحسين عليه السلام وهجائه قاتليه، وكذلك في حديثه عن السلاح والخيل والحكمة والفتيان، جماعته، والهجاء، ومعاركه وأيامه وشخصية البطل، ودوافع هذه البطولة، والسجن والتحدي، والمرأة في شعره وغيرها من المعاني الشعرية الجميلة المعبرة التي وقفنا عليها وقفة نقدية تحليلية.

الخصائص الفنية في شعر ابن الحر، ونتائج البحث:

لا يمكن الفصل بين موضوع الشعر وبنيته الفنية؛ ذلك لأن فصل الشكل عن المضمون عبث وخطأ نقدي فادح. فشكل العمل الفني هو موضوعه، والعكس صحيح.

ولذلك لم نفرد حديثاً للمضمون وآخر للشكل، فقد تناولنا النص الشعري عند ابن الحر فبينّا القيم التعبيرية التي يعبر عنها، وكذلك الشكل والأسلوب أو القيم الفنية التي حملت إلينا هذه التعابير؛ إذ ليس للتحليل الأدبي أية قيمة دون الحديث عن الجوانب الفنية، بما تشتمل عليه من لغة تضم ألفاظاً، وتراكيب، أو من صور فنية، حقيقية أم مجازية، أو إيقاع نغمي مرتبط بالإيقاع النفسي وهكذا... ورغبة منا في إبراز الخصائص الفنية، وتلخيص أهم النتائج التي وصلنا إليها على صعيد البناء الفني والمستوى الإبداعي والنقدي معاً، نسجل الملحوظات التالية التي تميز ابن الحر بوصفه إنساناً وفناناً:

أولاً- إن شخصية ابن الحر التاريخية تتفاعل وتتداخل في شخصيته الفنية، فحديثه الشعري عن السياسة والمجتمع، ورأيه في الغنى والفقر، وطموحاته وتعاليه على الخصوم، ورؤيته للجاه والثراء، وشجاعته، وصفاته، وأوصاف السلاح والخيل والفتيان المحاربين وغيرها... قضايا تحدد طبيعة شخصيته، كما أوضحناها من خلال شعره – على قلته، لأن أكثره ضاع – ولذلك نقول: استطاع ابن الحر الشاعر الفارس أن يرسم بالكلمات الدقيقة في تعبيراتها، الصادقة في مدلولها، وهي

مثيرة لتجاربه الشعرية المؤثرة في المتلقي، صـورة واضـحة لحياتـه ونضاله، ولظروفه الخاصة، ونفسيته، فقد اسـتطاع أن يحـدد طبيعـة الجانب الأخلاقي الحماسي المتصل بـالكرم، والجـرأة، والـصراحة، والصدق الواقعي، المتحد تماماً بالصدق الفني، سواء في حديثـه عـن وقعة بعينها، أو السجن، أو البطولة والفروسية، وبتعبير آخر: كان شعر ابن الحر لهيباً من البطولة تضطرب فيـه معـاني النخـوة والمـروءة والإقدام، وصورة لحقيقة عقله وقلبه، لأن شعره أناشـيد البطولـة فـي معارك الفخار، ولعل أهم ما قدمته هذه الأشعار القليلـة للمتلقـي، أنهـا كانت الغذاء الذي يبعث في نفوس الطامحين إلى المجد نوازع الحريـة والانعتاق. فهي ترسم طريق الخلاص وتجسد المثل الأعلـى للفـارس المنتصر برجاله وإيمانه وإخلاصه، وهذا يحدد وظيفة الشعر عند ابـن الحر وأمثاله.

ثانياً- إن شعر الرثاء الذي تحدثنا عنه بالتفصيل في الفـصل الأول، إرهـاص مهم للشعر الذي قيل في رثاء آل البيت فيما بعد. ذلـك الـشعر الـذي ارتفعت فيه المشاعر الدينية على صوت الانتماء القبلي، والـذي حـدد وظيفته في الكفاح لتأكيد مسألة الخلافة وحق الطـالبيين فيهـا، وجـور مغتصبي الملك الهاشمي، وغيرها من الخصائص المعنوية والفنية التـي نقف عليها في شعر الكميت وكثيّر عَزَّة، ودعبل الخزاعي، وابن هـانئ الأندلسي وغيرهم من الشعراء الـذين رددوا معـاني التوبـة والأسـى والدعوة إلى الثأر لمصرع الحسين، والتحريض على مقاتلـة الحكـام، وكذلك بروز رنة الحزن ومشاعر الحسرة في هذا اللون من الشعر الذي كان ابن الحر، وهو غير شيعي، بداية حقيقية له.

فإخفاقه في اتخاذ الموقف المناسب من أحداث كربلاء المأساوية الفاجعـة، كان الدافع الأساسي لتفجير معاني الكآبـة والحـزن والتقريـع والوعيـد وهجاء ابن زياد وكل أمير جائر، والتي كانـت صـدى لموقـف دينـي وأخلاقي مبني على الالتزام بالإسلام الحنيف، وحب آل البيت، جسّد ذلك سلوك شاعر قوي الشخصية، مرهوب الجانب، صادق التعبيـر، موحـد العاطفة.

ثالثاً- إذا كان الشعراء الصعاليك في العصر الأموي قـد أحـدثوا موضـوعات جديدة كانت وليدة الظروف الخاصة والعامة، كمدح العمـال، والخلعـاء

المتمردين، والحنين إلى الاستقرار في الوطن، والتعبير عن التوبة، وطلب المغفرة، والاعتذار، ووصف السجون وحياتها، إلى جانب الموضوعات القديمة كأحاديث التشرد، والتأبّد، ومصاحبة حيوان الصحراء والهجاء، والتهديد[١]، فإننا لا نجد عند ابن الحر من الموضوعات الجديدة هذه سوى وصف السجن والتحدي، وظروف حياته فيه، وتأثير سجن زوجته على نفسه، ونوازعه ومجاهدة النفس، يضاف إلى ذلك العتاب والاعتذار من موقع القوة وليس الاستعطاف. أما الهجاء والتهديد فقد كان جزءاً من اهتمامه الشخصي والفني، إلا أن الرجل لم يمدح أحداً. أما حديثه عن فتيانه فهو جزء من أناشيد البطولة لأن هؤلاء الأصحاب المخلصين المطيعين الأشداء عدة النصر ووقود المعارك..

رابعاً- إننا نشك في أن الأشعار التي عرضنا لها في هذا الكتاب هي كل ما قاله عبيد الله بن الحر، بل نكاد نجزم أن أكثر شعره قد ضاع، نتيجة عوامل سياسية أو تاريخية، أو موضوعية تتصل ببداية الاهتمام بالرواية والتدوين، فالرجل ثائر لا وطن له ولا مستقر، وقد خلا شعره من الحديث عن الملوك والقادة ممن يرى أكثر الرواة الشعر من خلال عيونهم، أضف إلى ذلك أن الشاعر وجد في فترة زمنية متقدمة نسبياً، وصعبة وغير مستقرة، وهذا ما يفسر ضياع أكثر هذا الشعر، ويؤكد هذا الرأي ما ذكره صاحب الحماسة البصرية[٢] من أن لابن الحر: أربع قصائد في (منتهى الطلب- السفر الأول) لم يعثر عليها. وكذلك الأمر ما ذكره ابن أعثم[٣]، وغيره ممن قرأ كتاب اللصوص للسكري، وليس ما ذكره الدكتور القيسي[٤] وصاحب موسوعة اللصوص هو كل ما ورد في المظان المختلفة، فقد أشرنا إلى عدد من الأبيات لم يذكرها القيسي، وغيّرنا في روايته وفي ضبط الكثير من الأبيات مستندين إلى مصادر أخرى.

خامساً- أما من حيث الشكل والبناء الفني في شعره فيمكننا أن نسجل النتائج التالية مستقاة من شعره، خلاصة لدراستنا النقدية:

---

(1) انظر: الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د. حسين عطوان (١٢٠-١٤٧).

(2) الحماسة البصرية (١/ ٨١).

(3) كتابه الفتوح (١٢٥).

(4) كتاب شعراء أمويون والاستدراك.

أ-أغلب شعره مقطوعات لا تتجاوز عشرة أبيات، وربما يعود السبب إلى أن أشعاره كانت استجابة لموقف معيّن فرضته اللحظة الراهنة، أو الموقف المعيش، فكل قصيدة أو مقطّعة أو بيت برأسه، مرتبط بمناسبة أو خبر يحدد مثير التجربة أو دافع القول.

ومن هنا كان شعره امتداداً للخط الفكري الملتزم الذي يوجه أحداثه، فهو ليس من قبيل الشعر القبلي أو السياسي أو حتى المتصعلك الذي نجده عند معاصريه. لقد خلا شعره من الموضوعات التقليدية لأنه لم يكن شاعراً متفرغاً للشعر، فقد كان شعره وسيلة إعلام وإعلاناً عن الموقف أو الفكرة أو السلوك... هذا إلى جانب أن شعره هذا لم ينشد في محافل عامة أو خاصة كبلاط الخليفة أو قصور البطانة، إنه صفعات موجعة لأكثر هؤلاء، لذلك لا بد من مصادرته أو الأمر بإهماله. ويكفي في هذا الشعر البيت الواحد أحياناً، لشدة وقعه وعنف لهجته... ومن هنا كان شعره مقطوعات أو أبياتاً مفردة على الأغلب. وهذا الأمر مصداق قولنا: إن أكثر شعر ابن الحر لم يصل إلينا.

ب- أما عن هيكل القصيدة أو النموذج الشعري العام، فقد ذكرنا أن الشاعر لم يكن مفتنّاً بشعره، متصنّعاً فيه، بل كان شعر اللحظة، والعفوية، والتلقائية، لذلك لم يهتم بالمقدمات الطللية أو الغزلية أو الوصفية... بل كان يهجم على موضوعه مباشرة، فحقق له صفات الواقعية، ووحدة الموضوع. فهو في الرثاء يؤرخ لحياته وفعله ويطلق بيانات ثورية تؤمن للنفس الغذاء الذي يبعث فيها نوازع الانعتاق من سيطرة الألم النفسي الذي كان يثيره دائماً الأسف لعدم نصرة الحسين عليه السلام. كذلك الأمر في موضوعاته الشعرية الأخرى، فقد كانت القصيدة أو المقطّعة تشكل وحدة عضوية بكل ما يعنيه هذا المصطلح النقدي المعاصر من معنى. فهي تتناول فكرة واحدة مزجاة بعاطفة واحدة، فتحقق تطوراً في البناء الفني قائماً على أساس الترابط المنطقي وتسلسل أفكار الموقف الشعري.

ج- أما من حيث التركيب اللغوي لشعره، أو جماليات التشكيل، أو البنية الفنية فقد كادت أشعاره تخلو من أدوات الصنعة أو الأصباغ البلاغية من جناس وطباق ومشاكلة وسجع وغيره، كذلك لم يكن

يهتم بالصور البلاغية سواء أكانت تشبيهاً أم كناية أم استعارة، لأن القصيدة عنده حديث مباشر، وبثّ وجداني ذاتي حار وتجسيد لفظي لموقف واقعي. كان الشعر عنده وسيلة لخدمة القضية والتعبير عنها وليس غاية لإبراز القدرة على الصناعة الشعرية أو التفنن فيها.

أما لغة شعره فتمثل نقاء اللغة العربية، إذ إنه استخدم اللغة في إطارها الحقيقي وابتعد عن المهجور الحوشي، أو الجزل الذي يتسم بالصعوبة كانت لغته فصيحة عذبة وتعبيراً عن الصلة التي تربط بين العرب بعد الإسلام، والعرب الجاهليين. كانت الصورة المثلى للغة العربية ممثلة في القرآن الكريم، ومشخصة، ثانياً بالإصرار على أن الأدب العربي صورة ناضجة كاملة النضج قبل أن تتصل الثقافة العربية بغيرها من ثقافات الأمم، كما يقول الدكتور ناصف[١]. ومن هنا عدّ الشعر الجاهلي أعلى قمم الشعر العربي على الإطلاق... وبناء على ذلك وجدنا لغة الشاعر سهلة العبارة، وناصعة البيان، قوية المعنى نظراً لطبيعة التعبير الشعري، هذا إلى جانب بساطة التركيب، وعدم تفريع المعاني ومتابعة الفكرة بالاستطراد كما هو حال التعبير عند الشعراء الآخرين. ولذلك كانت اللغة –غالباً- في بعدها الحقيقي متسمة بالفصاحة والنقاء اللغوي والسليقة العربية.

د- أما عن موسيقا شعره، فقد كانت إيقاعاته النفسية صورة حية ونابضة لإيقاعه النغمي المتمثل بأمواج النغم. إذ عزف أكثر أنغامه على بحر الطويل وما توحي به تفعيلاته العديدة المتطاولة. وهذا يعني أن العلاقة بين التجربة الشعرية والموسيقا علاقة قائمة ومتحققة، فاللغة في الأدب علاقات متولدة من سياق القصيدة، ولذلك فإن جميع ما بداخل السياق يمثل موكباً متحركاً ومتعاوناً لإبراز التجربة[٢]. فللوزن قدرة على تجسيد الإحساس المستكنّ في طبيعة العمل الفني، هذا إلى جانب قدرة الشاعر على ربط البناء

---

(1) قراءة ثانية لشعرنا القديم (١١ و ١٢).

(2) انظر بحثنا: حول التجربة الشعرية والموسيقا. مجلة جامعة البعث العدد (٨) أيلول ١٩٩٠ ص ٦٠ وما بعدها.

الفكري ملتبساً ببنائه الموسيقي، ومن هنا كان نهـراً نغميـاً يحـدّ بضفافه تجربة ابن الحر، ويعطيها ذاته الفنية التي تسعى إلـى أن يتسع صدر البيت وعجزه إلى نفثـات الـشاعر، أو أن يحتـضن معاني البطولة وحسرات الندم بما فيها مـن طعـان، وضـراب، ونزال، وقتال، وتقريع، ووعيد، وحديث عن الذات النبيلـة التـي وجدت مجال التعبير عنها في السيف والقلم... هكذا كان عبيـد الله بن الحر الجعفي من خلال أخباره وشعره، الشاعر الحازم الفارس البطل، والإنسان الحزين المتحسّر، لم يكن لصاً، لكنه كمـا يقـول عبد المعين الملوحي[١]: كان ثائراً سياسياً وصاحب فتنـة، علـى غرار أكابر أصحاب الثورات والفتن في ذلك العهد الصاخب. وإذا كان السكري أدرجه مع اللصوص، فقد أغفل ثورتـه الـسياسية، واعتمد على سلبه لأموال الحكام والعمال.

فهو بحق- كما يقول الدكتور عطوان[٢]: "أَذْكَرُ صعلوك سياسـي أنـشأته الظروف السياسية المتقلبة" وإن كنا نتحفظ على تـصنيفه مـع الـصعاليك؛ لأن الرجل كما بيّنا كان صاحب قضية وحامل رسـالة، وفارسـاً نبـيلاً، وشـاعراً صادقاً.

¾ ¾ ¾

---

(1) أشعار اللصوص (١/ ١٣٩).
(2) الشعراء الصعاليك في العصر الأموي (٧٥).

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١ -الأخبار الطوال: أبو حنيفة الدينوري، ت: عبد المنعم عامر وجمال الشيال، مكتبة المثنى- بغداد (...).

٢ -الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، للخالديين، ت: د. محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٥٨)م.

٣ -أشعار اللصوص وأخبارهم: جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي. الطبعة الثانية. دار الحضارة الجديدة، بيروت (١٩٩٣)م.

٤ -أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البلاذري، ت: لجنة بإشراف د. طه حسين –دار المعارف - القاهرة.

٥ -البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام محمد هارون، ط٣ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٨م.

٦ -تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ٤ دار المعارف، القاهرة.

٧ -جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن حزم ت: عبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م.

٨ -حماسة البحتري، ضبطه وعلق حواشيه كمال مصطفى، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٢٩.

٩ -الحماسة البصرية، لصدر الدين البصري (ت ٦٥٩) ت: د. مختار الدين أحمد، حيدر أباد- الهند ١٩٦٤م.

١٠ -الحماسة الشجرية، لابن الشجري، علي بن حمزة العلوي الحسني (المتوفى ٥٤٢هـ) ت: عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق (١٩٧٠)م.

١١ -الحيوان: الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، ط١، مكتبة البابي الحلبي القاهرة ١٩٣٨.

١٢ -خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي ط١ دار صادر، بيروت.

١٣ - ديوان الأدب، الفارابي، ت: أحمد مختار عمر، القاهرة ١٩٧٤.

١٤ -ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي (ت ٣٥٦) المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٥٣م.
١٦ -رسائل الجاحظ، الجاحظ، ت عبد السلام هارون: مكتبة الخانجي القاهرة (١٩٦٤).
١٧ -الروض المعطار في خبر الأمصار، محمد الحميري – تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية ط١ ١٩٧٥.
١٨ -استدراك على أشعار عبيد الله بن الحر... د. نوري حمودي القيسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، المجلد الحادي والثلاثون جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ نيسان ١٩٨٠.
١٩ -الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البّر، تحقيق محمد علي البجاوي، مكتبة نهضة مصر –القاهرة (...).
٢٠ -شرح المعلقات السبع: الزوزني، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة (١٩٧١)م.
٢١ -شعراء أمويون: د. نوري حمودي القيسي مؤسسة دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل (١٩٧٦)م.
٢٢ -الكامل في الأدب: المبِّرد، محمد بن يزيد، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط٤ دار المعارف القاهرة.
٢٣ -الكامل في التاريخ: ابن الأثير. دار صادر، بيروت (...).
٢٤ -كتاب الفتوح، ابن أعثم الكوفي- دار الكتب العلمية- بيروت ط١ (١٩٨٦)م.
٢٥ -كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٨٧١م.
٢٦ -لباب الآداب، أسامة بن منقذ، ت: أحمد محمد شاكر، القاهرة (...).
٢٧ -المحبِّر، محمد بن حبيب البغدادي، ت: شتيتر: المكتب التجاري، بيروت (...).
٢٨ -معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٥٦.

ثانياً: المراجع:

٢٩ -البطل في التاريخ، سدني هوك، ترجمة مروان الجابري، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٩.
٣٠ -البطولة في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة ط٢، (١٩٨٤).
٣١ -تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، أحمد الشايب ط٣ مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٢.
٣٢ -الثابت والمتحوّل، د. علي أحمد سعيد (أدونيس) ط١ دار العودة – بيروت ١٩٧٤.
٣٣ -حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة: د. يوسف خليف، دار الكاتب العربي- القاهرة (١٩٦٨)م.
٣٤ -شعر الحرب في أدب العرب، د. زكي المحاسني، ط٢، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠.

٣٥ -الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د. حسين عطوان، دار المعــارف – القــاهرة ١٩٧٠.
٣٦ -ضحى الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (...).
٣٧ -علم المعاني، د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة (...).
٣٨ -فيض الخاطر، أحمد أمين، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة (...).
٣٩ - قراءة ثانية لشعرنا القديم، د. مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت ط٢ (١٩٨١) م.
٤٠ -مقدمة للشعر العربي، أدونيس، ط ٣ دار العودة، بيروت (١٩٧٩) م.

ثالثاً: من الدوريات

٤١ -الإيديولوجية والشعر، د. غالي شكري، بحث في مجلة الشعر، وزارة الثقافــة الإرشــاد القومي- القاهرة. العدد الرابع (إبريل) ١٩٦٤.
٤٢ -حول التجربة الشعرية والموسيقا، د. أحمد علي دهمان. بحث في مجلة جامعة البعــث- حمص. العدد (٨) أيلول ١٩٩٠م.

رابعاً: المعاجم

٤٣ -أساس البلاغة، الزمخشري، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٢.
٤٤ -تاج العروس، الزبيدي- دار صادر، بيروت ١٩٦١م.
٤٥ -القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المطبعة الحسينية المصرية ــط٢- ١٣٤٤هــ.
٤٦ - لسان العرب، ابن منظور المصري، دار صادر بيروت (...).
٤٧ -المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرين، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

¾ ¾ ¾

الفهرس

¾ ¾

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

عبيد الله بن الحر الجعفي:بين أناشيد البطولة وآلام الندم: دراسة نقديـــة/
أحمد علي دهمان– دمشق: اتحـــاد الكتـــاب العـــرب، ٢٠٠١ –
٩٩ ص؛ ٢٥سم.

١- ٨١١,٤٠٠٩ د هـــ م ع

٢- العنوان ٣- دهمان

ع- ٢٠٠٢/٤/٧١٩ مكتبة الأسد

q q